الحياة في الظل

عنوان الكتاب : الحياة في الظل

الكاتب: أحمد حيدر

اختيار وتقديم: صالح سميا

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/130/ نيسان

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني:mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

أحمد حيدر

الحياة في الظل

اختيار وتقديم : صالح سميا

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (130)

أحمد حيدر الفيلسوف والإنسان

صالح سميا

أحمد معروف حيدر مُفَكِّر وفيلسوف جعل من فلسفته الأخلاقية منطلقاً لتسامي الإنسان الذي هو شخص، يريد أن يعامل كغاية في ذاته لا وسيلة، بصفته شخصاً، وليس شيئاً وليس أداة. والشخص عند حيدر هو أنا وأنت، الإنسان لحماً ودماً، الإنسان الذي يولد ويعاني ويفكر، الإنسان الأخ الذي يستطيع تحقيق ذاته من خلال الآخر المشارك في الوجود، هذا الإنسان المعين هو الذات والموضوع الأسمى "إنه الشخص الذي من خلاله تتحقق الماهية الحقيقية للإنسان.." إنه الإنسان ما ينبغي أن نهتم به "وحيدر مثل "كانت" إنسان من قلب وعقل، إنسان يرى الأخلاق هي الأساس الذي يُبنى عليه علم الميتافيزيقيا، ومثله مثل "سبينوزا" يرى أن ماهية الإنسان جهد دائب كي ما يظل إنساناً، كي لا يموت.

الشخصائية عند حيدر هي التي تُكسب الإنسان صفته الإنسانية، وما يهم حيدر هو الإنسان المتعين لحماً ودماً، الذي يولد ويفكر ويموت، فإلى أي حد يتوفر البعد الشخصاني في عصرنا، عصر العولمة الذي يصر على تدمير الإنسان من خلال تدمير الهوية في صورتها الفردية والاجتماعية، ويعتقد حيدر أن التأليف بين الشخص الإنساني بصفته منتجاً للقيمة الأخلاقية العليا، وبين النظام العلمي للطبيعة، هذا التآلف هو الذي يحرر الإنسان من الإيديولوجيا وضلالاتها، وهو الذي ينقلنا من وحدانية الخط في التفسير والتقويم إلى ثنائية الإنسان والعالم، الثنائية التي تضع العلم والتكنولوجيا تحت رقابة الإنسان.

هذه الثنائية يقول حيدر لا يعارضها العلماء وإنما تعارضها النخبة المهيمنة الساعية لأن تكون الذات الوحيدة الفاعلة في العالم، أو الذات الكونية، أو ذات التاريخ، والتي تَعدُّ نفسها مركز العالم، والمقياس الوحيد لكل الحقائق، حيث تظهر رغبة الأنا هنا نابعة من الأنانية "الأنا العطالي" كما يسميه حيدر، هذه الأنا التي يعدها "يونغ" عقدة سيكولوجية عصية على التفكك تحول بين الإنسان وبين أن يكون عين ذاته، فتعمل على إلغاء الذات الفاعلة وإلغاء مشاريع التشخصن

الإنساني، وحتى إلغاء الميتافيزيقيا والفلسفة، وإلغاء عالم القيم الذي يعدُّ أفق التعالي عند الإنسان لبناء عالمه.

حيدر الذي عاش زاهداً في صومعة الفكر والفلسفة من أجل الوصول إلى حقيقة الإنسان وحقيقة الوجود، غائصاً في أعماق النفس البشرية لمعرفة مكنوناتها والعمل على تخليصها ن استلابها واشتطاطها، وهو المشابه لحكيم أثينا فكلاهما متواضع حتى الغلو، وكلاهما يتماهى فيه الإنسان والفيلسوف، وكلاهما رجل مبادئ لا تجد في أقواله ما يخالف أفعاله، وكلاهما يمتلك القدرة على السخرية إذا اقتضى الأمر، وكلاهما يؤمن بالآخر ويحاوره، وكلاهما لم تغره الحياة وبهرجها.

وإذا كان سقراط لم يكتب فلسفته، فإن حيدر قد أغنى المكتبة الفلسفية بمجموعة من الكتب أذكرها وفق التسلسل التاريخي لنشرها وهي:

1 ـ طريق الإنسان الجديد بين الحرية والاشتراكية 1962.

2 ـ نحو حضارة جديدة 1970.

3 ـ العطالة والتجاوز 1987.

4 ـ مقالات فلسفية 1989.

5 ـ إعادة إنتاج الهوية 1997.

6 ـ البحث في جذور الشر 1998.

7 ـ تمهيد في معنى الحضارة 2000.

8 ـ من الإيديولوجيا إلى الفلسفة 2002.

9 ـ الجمالية والميتافيزيقيا 2003.

10 ـ الخروج من الاستلاب 2008.

وله رواية بعنوان: (الحياة في الظل) نشرت عام 1964 وكان يرغب في العودة إلى كتابة الرواية على طريقة سارتر وكامو لكن القدر لم يمهله.

وحيدر كفيلسوف أخلاقي بحث في جذور الشر الأخلاقي والسياسي فوجد الإيديولوجيا والعطالة والاستلاب من أهم العوامل المفضية إلى الشر الذي يفتت الهوية ويسقط المجتمع في اللامعقول، هذه الإيديولوجيا التي هي بالتعريف القاموسي "نسق من الأفكار و الآراء والنظريات السياسية والحقوقية والدينية والأخلاقية والجمالية والفلسفية" وهي جزء من الوعي الاجتماعي يتحدد بظروف المجتمع المادية كما تقول الماركسية.

ويفترض بالإيديولوجيا أن تفسر الواقع وتتطابق معه من أجل امتلاك الحقيقة.

والماركسيون يقسمون الإيديولوجيا إلى إيديولوجيا إيجابية تقدمية منفتحة على الواقع ومطابقة له، أي أنها متطابقة مع مصالح الطبقة و متطلبات التطور الاجتماعي، وإيديولوجيا سلبية رجعية تشوه الواقع وتحرفه منطلقة من نزعة الرغبة أو الأنا الذي سيطلق عليه حيدر "الأنا العطالي" أو الرغبة العطالية، معتمدة الإعلام لتسويغ سلوكها.

إذن الإيديولوجيا "تتسم بطابع طبقي"، ويأتي الصراع في ميدان الإيديولوجيا انعكاساً لتضاد المصالح الطبقية، ويمثل شكلاً من أشكال الصراع الطبقي، فالإيديولوجيا المعبرة عن مصالح الطبقات الرجعية تعكس الواقع انعكاساً مشوهاً.

ويقول الرجعيون مثلما كان التطور العلمي يتطلب في حينه تحريره من ربقة الإيديولوجيا الدينية القروسطية، فإن تقدم المعرفة العلمية في عصرنا يستلزم قطع الصلة وفك الارتباط بالإيديولوجيا، ومن هنا كان النداء بنهاية الإيديولوجيا، ويرى الماركسيون أن هذا المطلب بإنهاء الإيديولوجيا موجه ضد الإيديولوجيا الماركسية، وذلك بعزل العلوم الاجتماعية عن المشكلات التي باتت تقلق بال المجتمع.

ويـرى حيـدر أن مـاركس كـان صـورة مشـرقة مـن عصـر الأنـوار، كـان يحمـل يوتوبيـا الخـلاص الإنسـاني، وقـد كـرس حياتـه لـذلك بالإضـافة إلى عـدِّ الشـر نتيجـة للنظـام الرأسمـالي، وهـذا النظـام سـائر إلى الـزوال فأضـفى علـى الاقتصـاد طـابع الأسطورة المحررة من العبودية والاستلاب.

يقـول حيـدر إن الاقتصـاد والتكنولوجيـا يحمـلان غوايـة الهيمنة والتملك لمن يمتلكها، وهما يخاطبان الرغبة السحرية في أعلـى مراحـل التطـور العقلانـي، وهمـا أداة الحضـارة الحديثـة، لكن السياسة توظفهما توظيفاً مضاداً يفتك بالحضارة.

ويرى أن الإيديولوجيا الاشتراكية العلمية قد استلبت وعي مـاركس وقـد شـوهت الماركسـية وحجبـت وجههـا الإيجـابي الأخلاقي كما حجبت المقولة المحورية التي هي مفهوم الإنسان الكلـي المعـبر عـن الماهيـة الإنسـانية كمـا جـاء في المخطوطـة الفلسـفية 1844 لقـد جعلـت الإيـديولوجيا العلميـة مـن الماركسـية حقيقـة مطلقـة لا يأتيهـا الباطـل، فهـي تحمـل نفـوذ العلـم وتمـنح صـاحبها الحـق في رفـض الـرأي الآخـر وحذفـه، فالماركسـية إيديولوجيا تسويغيّة بعد الدفاتر الفلسفية، والاستلاب والضلال المعرفي الذي صنعته قد وضعها في خانة مضادة لمقصدها الأصلي.

وللسياسة وجهان يقول حيدر وجه هو في الأصل حامل للعقلانية ووجه لا عقلاني هو امتداد الرغبة التي تنتمي إلى مبدأ اللذة وتهدف إلى الإشباع المطلق وانعدام التوتر "النيرفانا" القائم عن ضرب من جنون العظيمة.

وهذا ما يتجلى في الرأسمالية التي تطورت على الإمبريالية، ثم العولمة التي تهدف إلى التملك والهيمنة، وتلكم هي العطالة التي تريد السيطرة على العالم.

إن مقاصد الإيديولوجيا من الناحية النظرية خيرة، وتنطلق في منطلق قيمي، ولكن من الناحية السلوكية فهي براغماتية وتلفيقية، ومضللة، ومشوهة، لأن الذي يقودها هو الرغبة أو الأنا اللاشعوري وليس العقل، والأنا اللاشعوري الأنا الشهواني النرجسي لا يمتثل إلى العقل.

وإن القول الإيديولوجي يتمتع بقوة الفكرة التامة ورسوخها في نفس صاحبها كأنه ضرب من الوسواس القهري (فعندما يعتري لغة من اللغات بعض التصلب، أي عندما تصبح لغة حزب أضفيت عليها المنظومية، تصبح ضرباً من المقاومة فائقة الحد لسائر ضروب التكذيب ا لتي يمكن أن يحملها الواقع إليها. بحيث يصاب مراقب خارجي بالدهشة لما يراه من تناقض بين

أقوال هذه الأحزاب وأفعالها فالإيديولوجي يزيف اللغة عندما يحدث انقطاعاً بين الدال والمدلول، بين القول والفعل، أو بين الواقع.

إن جذر الإيديولوجيا كامن في اللاشعور، لذلك هي لا تخاطب وعي البشر، بل تدغدغ رغباتهم الصماء اللاشعورية، إنها غواية تؤدي إلى الاستلاب، وهي مبنية بإسمنت الرغبة، أي الانفعال والعاطفة، فهي مغلقة على ذاتها.

لكن حيدر يعود ليقول (إذا وضعت الإيديولوجيا في موضعها، فإنها تهبط من مستوى النظرية المطلقة إلى مستواها الواقعي، وبذلك يتم تجاوزها، ولكن هذا التجاوز لا يتم إلا من خلال الفلسفة، فالفلسفة هي التي يمكن أن تكشف الإيديولوجيا في تضادها مع الفكر العلمي) لأن الفلسفة تنطوي على هاجس الحقيقة، ومصير الإنسان مرتبط بها، والحرية ماهية الحقيقة.

الإيديولوجيا ذرائعية، بينما الفلسفة تنطلق من الانفتاح على الحقيقة وأن فهم الوجود مستحيل بغير الانفتاح، والإنسان لا يفهم نفسه وعالمه، إلا لأنه يوجد دوماً في هذا الانفتاح.

وبما أن الإيديولوجيا مدفوعة بالرغبة، أو الأنا الراغبة فإن الحقيقة لا تعنيها والإنسان كما يراه حيدر إما أن يكون منغلقاً على ذاته أو منفتحاً عليها. الحالة الأولى حالة الانغلاق هي التي تنتج الإيديولوجيا أما الحالة الثانية حالة الانفتاح على الذات وعلى الوجود فهي تمثل الوجود الأصيل كما تقول الوجودية، من هنا يقول حيدر "نجد أن الإيديولوجيا هي فن صناعة الأوهام التي تسحر المغلوب وتجعله يتبنى إيديولوجيا الغالب ولهذا لا بد من فضح الإيديولوجيا من أجل الخروج من الاستلاب ومن أجل بناء الهوية، لأن الاستلاب هو ضرب من الضلال المعرفي لا بد من التحرر منه"، "فخلف الكلمات لا نجد سوى صراع المصالح، يعتقد الناس أنهم يموتون من أجل الدين لكنهم في الحقيقة يموتون في سبيل رجالات أو رجال الدين" إن ماركس في تحليله الإيديولوجيا يعيننا على المعرفة المحررة، وهذا الجانب من الماركسية في رأيه لم يستنفد، وما استنفد من الماركسية هو ربط التحرر بالضرورة التاريخية العمياء، وهذا بحد ذاته ضرب من الاستلاب.

فالاستلاب يمر من خلال اللاشعور الاجتماعي لتتكون فيه إيديولوجيا الاستلاب كما يقول ماركس، وعندما نغوص على هذا الجذر اللاشعوري ونعرفه نستأصله من النفس.

ويــرى حيــدر أن الإيــديولوجيا تنفــي الفلســفة، والرغبــة العطالية تنفي الحقيقة، ودمار الثنائية هو هدف النظام العالمي الجديد فالإيديولوجيا اللاشعورية تحول بيننا وبين الرؤية الموضوعية للعالم ونحن نعلم كم عانى العلم للخلاص من النزعة الجوهرية، والأحكام المسبقة والصور اللفظية التي تحل محل التفسير الواقعي، وإذا كان العقل العلمي بحاجة للتطهر، فإن الإيديولوجية أكثر حاجة لهذا التطهر.

وفي الحديث عن العطالة يقول حيدر "إن العطالة تقوم على الفردية، والفردية نقيض التشخصن، وتظهر الفردية في قول نيتشه /أن الفرد المتفوق المتفرد بذاته يصنع حقيقته، ويصنع قيمه/ وهذا ما قاله السفسطائي //الإنسان مقياس كل شيء// والعطالة بالتعريف هي نوع من الجاذبية التي تجذب الإنسان وتمنعه من التعبير عن ذاته تعبيراً كاملاً، أو هي قوة سلبية تمنع الإنسان من الانفتاح على الواقع والفهم السليم له، وتعرّف طاقياً أي بمفهوم طاقي. أي البحث عن الطاقة الأقل، أو الاقتصاد في الطاقة، وبذل الجهد الأقل.

ويرى حيدر أن مبدأ العطالة يتجلى من خلال مبدأ "النيرفانا" والبحث عن درجة صفر من التوتر كما يقول فرويد.

والعطالة موجودة في داخلنا، وهي تراوغنا، ونحن غالباً ما نستسلم لغوايتها، ونتواطأ معها بضرب من خداع الذات، فالعطالة قابعة في قبو الشخصية (في اللاشعور) وهذا القبو هو كهف التناقض واللامعقول، والإنسان لكي يكون صادقاً مع نفسه عليه أن ينزل إلى هذا القبو الذي سبقه إليه الفلاسفة و الأنبياء وعلماء النفس متسلحاً بالإخلاص للحقيقة ضد نفسه الأمارة بالسوء. إن العطالة نرجسية في صميمها، وهي منغلقة على ذاتها، وأن السلطة هي مكان تمركز السياسة هي بدورها ميل نحو العطالة لأن دافعها نرجسي يهدف إلى التملك، كما أن البيروقراطية هي الشكل الأدهى للعطالة إذا كانت السياسة فاعلية تستمد معقوليتها من الغايات العليا، فإن التحقيق العيني المباشر لهذه القيم هو الذي يمنحنا معقوليتها ومشروعيتها. وحيدر مثل سقراط وأفلاطون يرى أن فضيلة السياسة هي العدالة، فالعدالة هي التي تمنح المعقولية للسياسة.

وفي حديثه عن العولمة يقول "إن العولمة توظف من أجل رغبتها العطالية معرفة العصر، وقد أصابت هذه العولمة علم الاقتصاد بعدوى الانحراف الإيديولوجي فبدل أن يكون منتجاً للحاجات الإنسانية، أصبح داعماً لعلاقات التسلط العطالي. فالعولمة بفعلها

العطالي تريد إخماد الحلم بغد أفضل وهي تبشر بنهاية اليوتوبيا ونهاية الإيديولوجيا ونهاية التاريخ أي بإغلاق الصيرورة وانتصار النزوع العطالي نحو تسكين العالم وإرجاعه إلى عالم من الأشياء هي مجرد أدوات للعولمة.

فالذات العطالية العظمى ذات العولمة الأمريكية الصهيونية هي الذات الوحيدة في العالم. فقد وصلت الرغبة العطالية في عصر العولمة إلى مرحلة عبّر عنها سارتر بإرادة الإنسان أن يصبح إلهاً بعد أن أعلن نيتشه موت الإله.

ويقول حيدر في الهوية إنها ترتكز في بنائها على نظامين أحدهما معرفي يقدمه العلم والآخر ثقافي يعدُّه النواة الأخلاقية للهوية، مؤكداً أن لا شيء يصون الهوية ويحميها غير العدالة ويضيف إذا كانت الهوية نزوعاً نحو الاستمرار في الوجود، فهي ليست نظاماً معرفياً وأخلاقياً معطى، بل فعالية مباشرة تظهر في الانفعال الذي يظهر في لحظات الخطر الذي يهدد هذا الوجود. والهوية في رأيه تؤخذ من الواقع الثقافي للشعب تغتني وتفتقر بغنى وفقر هذا الواقع.

أما فيما يتعلق بالاستلاب الذي هو المحور الرئيس لهذه المقالة فإن حيدر قد حاول في أغلب كتبه معالجة مفهوم الاستلاب سواء أكان الاستلاب سياسياً أو أخلاقياً أو دينياً،

ولعل الاستلاب الديني وهو الأشد خطورة لذلك سيكون التركيز عليه، فما هو الاستلاب في فلسفة أحمد حيدر؟ وقبل الحديث عن الاستلاب لنرى ما يقوله حيدر عن الدين، فمما لا شك فيه أن الدين هو العاطفة الأكثر تجذراً في النفس البشرية، وهو الأشد تجذراً في البناء الاجتماعي، إنه القيمة المحركة للمجتمع ومن هنا يصبح الاستلاب الديني أو الضياع الديني هو ضياع المجتمع وضياع الهوية، إن الاستلاب هو ضياع الوعي والضلال المعرفي والإسقاط الخاطئ على موضوع لا يملك الجدارة، ولا يتناسب مع هذا الإسقاط، ويدخل في هذا التعريف عنصر التخيل وعنصر الوهم، وهذا ما يضللنا كما يقول حيدر فلا نرى الطبائع الأصلية للأشياء، فقد نرفع الشخصيات إلى مرتبة القداسة أو إلى مستويات بعيدة عن طبيعتهم الأصلية.

والاستلاب هو علاقة غير صحيحة بين الإنسان والعالم، تعود إلى وضعية مرضية للإنسان الذي لم يستطع تجاوز مرحلة عمرية طفلية كما يقول فرويد.

فعالم الاستلاب عالم ذو مناخ عدمي يفتقر إلى الشعور الإنساني والسخاء النفسي، والانفتاح على الآخر، كما يفتقر إلى القيم وخصوصاً قيمة العدالة، وكل هذا في رأي حيدر

يصنعه المناخ السياسي الاجتماعي السائد، ففي ظروف هيمنة مناخ بربري قمعي رجعي لا إنساني ينهار الإنسان ويفقد شجاعته فيستسلم للخوف ويسقط في ضرب من الاستلاب.

وإذا كان الدين كما يراه فرويد قد نشأ في مرحلة مبكرة من التطور الإنساني وقت لم يكن فيه قادراً على استخدام عقله في التصدي للقوى الخارجية والقوى الداخلية في النفس، فلم يجد مفراً من كبتها أو التحايل عليها مستعيناً بقوى أخرى، وفي عملية يسميها فرويد بالوهم، تؤخذ مادة هذا الوهم من التجربة الخاصة في الطفولة، وبهذا يكون الدين عند فرويد تكراراً لتجربة الطفل الذي يحتاج إلى حماية والده.

ويميز حيدر معتمداً على تحليلات فرويد بين الدين وبين العصاب الطفلي فالدين هو عصاب اجتماعي تسببه ظروف مشابهة للظروف التي تسبب العصاب الطفلي.

الذي يقول حيدر ليس عصابياً في جوهره لكنه يصبح كذلك في أنماط معينة أو محدودة من الخبرة الدينية وهذا ما يقوله فرويد أيضاً لذلك يقول حيدر نحن أمام نوعين من التدين.

تديُّن أخلاقي يسميه بالدين الإنساني، وتديُّن عصابي أو مستلب ويسميه بالدين التسلطي، فالدين يتحرك ضمن مناخات

السلطة السياسية لأن السلطة السياسية هي التي تضع البنية الاجتماعية من الاقتصاد وصولاً إلى الدين، فالمجتمع ملكية خاصة للطبقة السياسية، من هنا نرى أن الدين التسلطي يتضمن عنصري الاستلاب، وضياع الوعي أو الضلال المعرفي، والضياع في الموقف الذاتي، إذ ينقل الإنسان أفضل ما في ذاته إلى كيان غريب عنه، وهذا النقل يسميه إيريك فروم بالإسقاط حين يكون الاستلاب كامناً في وقوع المجتمع تحت نير السلطة اللاعقلانية، وهذا ما ينقل الخوف والقلق إلى الأفراد الذين يفقدون الوعي ويخبطون خبط عشواء.

فالتسلط في رأي فيلسوفنا يحطم الشخصية الإنسانية ويجعل الإنسان يشعر بضالته وعجزه وتفاهته فيستسلم ويذعن للسلطة القوية ويفقد استقلاله وتكامله بوصفه إنساناً وهذه التجربة السيكولوجية يقول حيدر "هي جوهر الأنظمة التسلطية"، وهي جوهر الإرهاب برأي فرويد.

فشخصية الحاكم تحقق ذاتها ليس بتحقيق العدالة والحق وإنما بتحقيق القهر والإذلال للشعب، وهكذا يصبح الغوهر هو رمز الإله إن لم يكن الإله، هذا الانهيار من مستوى الحرص على القيم إلى الحرص على الحياة، مرده إلى الشعور بعدم الأمن

والقلق، وبهذا يتحول الدين تحولاً جذرياً من التعالي الأخلاقي نحو عالم القيم التي تقرب الإنسان من إنسانيته إلى حركة أفقية ضد الآخر الذي صور على أنه العدو، مصدر الخطر وتتحول طاقة الحقد من المستوى الشاقولي نحو الظلم الذي ينصب على المجتمع إلى المستوى الأفقي ضد الآخر من المجتمع نفسه الذي صوره الإعلام بمادة الأوهام أنه العدو.

ويصبح التدين العصابي قابلاً للاستهواء والتصديق بعد أن فقد قدرته النقدية وانجرف مع الأهواء المصطنعة، أي أن التدين العصابي ينكص الفرد باتجاه صورة الأب العتيقة، ويضع جماعته الدينية ضد جماعة دينية أخرى يسقط عليها كل مشاعر النبذ والرفض والعدوانية.

يقول حيدر إن التضليل الذي يمارسه التدين العصابي يفتّت الهوية الاجتماعية إلى هويات طائفية مشحونة بالخوف والحقد، أي يُحوِّل الدين من هوية اجتماعية إلى هوية طائفية زائفة وهكذا يتمزق شمل المجتمع وتبقى السلطة.

وهنا نجد النخب الزائفة تخون قواعدها وتضللها بإلصاق بطاقات كاذبة على الأشياء ما يؤدي إلى ترسب الاستلاب الديني في القاعدة، في القاع، على الحصيرة الاجتماعية التي تظل ثابتة

بقيمها وعاداتها وتقاليدها، بالإضافة إلى التشوهات التي تدخلها عليها النخبة.

فالنخبة الدينية تحقق إشباع رغبتها من خلال السلطة والسلطة تجد حليفاً لها في المؤسسة الدينية، فقد انهزم الدين التاريخي أمام السلطان الدنيوي، وهكذا يقول حيدر "تتحول الهوية الكلية الجامعة إلى هويات قطيعية مذعورة، هويات تجنب لا اندماج، تعزل فئاتها أو قطعانها بجدران الحذر وسوء الظن والكراهية".

فيحّول الاستلاب الديني طاقة الحقد من القناة الطبقية إلى القناة الطائفية حيث يدمر المجتمع نفسه بنفسه، فالجماهير التي تعاني من انعدام الشعور بالأمن الذي يتجلى أحياناً في صورة من الهيجان أو الجنون الجماعي، تتلقف أي فكرة لتصبح فكرة مُحرّكة أو مشحونة بالطاقة التي تتحول إلى فعل تدميري، والدين الحقيقي كما يراه حيدر هو المنفتح على الوجود المتعاطف مع الآخر وعلى الحقيقة، إنه ليس عقيدة نظرية بل هو فعل خلقي باطني، "إنه عبادة روحية خالصة كما يقول كانت".

لذلك يميز بين التدين الخالص وبين الدين، التدين الخالص أو الشعور الديني مرتبط بالشعور الأخلاقي.

أمـا الـدين والعقيـدة الدينيـة فقـد تنحـرف عـن الشـعور الأخلاقي بفعل الاستلاب، وفي رأي كانت ليس هنـاك سـوى دين واحد حقيقي (تشترك فيه كل الأديان) بينما يمكن أن تكون هنـاك أشـكال متعـددة مـن العقائـد الدينيـة كمـا يـرى زكريـا إبراهيم.

فالشـعور الـديني هـو شـعور داخلـي (الإلـه الكـامن في أعماقنا، في ذواتنا) هو المعيار الذي من خلاله نحكم على كل مـا يتمثـل لنـا بصـورة الـدين، فالتـدين الأخلاقـي هـو انتصـار للجوانية، لذلك يقول لا يجوز أن نبحث عن الدين خارجاً عنا بل في داخلنـا، والقـانون الأخلاقـي لا يمكـن إخضـاعه لأي سـلطة خارجية حتى ولو تزيت بزي الدين نفسه.

وهـذا معنـاه كمـا يـرى كانـت أن الأخـلاق لا تؤسـس علـى الدين بل العكس.

إن الـدين يقـول حيـدر حالـة فائقـة للوجـود العـادي والحيـاة اليوميـة، إنـه مثـل جميـع الحـالات الفائقـة كالإبـداع والتأمـل الفلسفي يتكون في أعماق الفرد، في العزلة الفردية والتأمل.

إذن الدين الحقيقي هو نقيض العقائد التي هـي ليسـت سـوى إيـديولوجيات، إنـه عبـادة روحيـة خالصـة، وهـو الـذي يحقـق بعـد

التعـالي مـع القـيم ليصـل إلى الله والبعـد الأفقـي الـذي يـؤدي إلى الآخر والبعد الثالث هو البعد الداخلي وهو الأهـم، إنـه قـائم علـى أساس الأخلاق ونقاء الضمير.

وللخروج من الاستلاب الديني يقول حيدر:

1 ـ لا بـد مـن أن يكـون الـدين مطابقـاً لمنطـق أخلاقـي قـائم على العدالة الإلهية وهذا ما نادى به المعتزلة الـذين انتهـوا نهاية مأساوية كما نعلم.

2 ـ لا بد من عودة العقلانية إليه وقد حاول كل مـن المعتزلـة وكانت وقبله ابن رشد وضع المعيار الصادق للدين لإنتاج الصورة الحقيقية له وهو المعيـار الأخلاقـي لقيـاس صـحة الـدين ومـدى انحرافـه عـن المعقوليـة أي اسـتلابه، يقـول كانت "لو كانـت سـعادة العـالم كلـه متوقفـة علـى قتـل طفـل بـريء لكـان هـذا عمـلاً منافيـاً للمبـدأ الأخلاقـي وبالتالي للمبدأ الديني".

إن التدين العصابي أي المستلب يمثل حالة لا عقلانية أو حالة مرضية كما هو العصاب الطفلي، لذلك يكون استلاباً وعلاقة المتدين العصابي بنفسـه لا تحكمهـا الحقيقـة ولا الضـمير، لـذلك هو تدين زائف يستمد زيفه من نزعته العطالية.

3 ـ إن معرفة النفس هي الموقف المضاد للاستلاب الديني وهو الشفاء من الضياع لأن الضياع هو عدمية أخلاقية تغزو أعماق الفرد، وللخروج من الاستلاب لا بد من الحوار بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء.

4 ـ الخروج من الاستلاب يكون بامتلاك الوعي وامتلاك الشجاعة أمام الوجود.

5 ـ بمواجهة الذات والقبض على زمام المصير وتطهير الذات من شوائب اللامعقول من عقد ورغبات ماكرة تراودنا ومن أفكار ثابتة أو أحكام مسبقة تضللنا.

6 ـ الخروج من الاستلاب كما يرى حيدر وفرويد يكون بالتصعيد للوصول إلى الوعي الساطع أي إلى مستوى التأمل بمساعدة الخيال الذي يتحرر من الارتهان للاستلاب لكن يقول حيدر هناك نماذج تقاوم الخروج من الاستلاب يسميها حيدر بالنماذج الإيديولوجية التي لا تستطيع التخلي عن عاداتها في التفكير.

إن الممكن التأملي هو مستوى الجمالية والميتافيزيقيا في وقت واحد، حيث يبلغ التشخصن كما له في الجمالية والميتافيزيقيا فيصبح الفرد شخصاً أو ذاتاً حيث ينتقل الإنسان

من الحال الطبيعية إلى الحال الثقافية. إلى حال الوعي التأملي الذي هو نزوع إنساني ينتمي إلى الغايات الإنسانية العليا، هذا التصعيد كما يراه حيدر هو الأساس للفن والدين وهو الطريق إلى التعالي، وهو مرتبط بالذات المنفتحة على آفاق الرؤية والتأمل في ممكنات الوجود، أي أنها حالة انفتاح كاملة من الرؤية والتأمل، إنها النظرة الميتافيزيقية التي يكشف فيها الوجود عن نفسه، نظرة الفنان نفسه اللحظة الجمالية الأصلية التي تضعنا في حضرة الوجود، لا الجمالية الزائفة التي تنتمي إلى الرغبة النرجسية.

لأن الجمالية الأصلية مرتبطة بماهية الإنسان وليس بالزهو والخيلاء إنها خلفية مشتركة بين صور التعالي كلها، الأخلاقية والدينية والفلسفية، إنها لحظة الإبداع الأساسية في شتى صوره، فكرية كانت أم فنية ويؤكد حيدر أن التصعيد تصعيد الرغبة وتحررها من نزعة الإشباع المباشر والانغلاق على الذات هو الذي يجعلها تستنير بالوعي والتأمل، فالرغبة طاقة خلاقة إذا ما صعدت، والتصعيد الذي نادى به فرويد تصعيد الدافع الجنسي وليس دافع الطعام. إذ ينطلق التصعيد من السمات الأخلاقية للأنا، أي من الشعور بالاحترام للذات والآخر وفق التعبير الكانتي.

وحضاراتنا التي أدارت ظهرها للاتصال بالآخر عن طريق الحب لم يبق لها سوى الجنس. والتصعيد على المستوى الفلسفي هو رؤية نزيهة للوجود أي احترام الوجود وانفتاح الذات على ممكنات الكائن وتركه ينفتح إلى أقصى مدى.

أخيراً:

إن الفرد لا يعاني في عصرنا الحالي من الاستبداد الديني وحسب، إنه مستلب في صميم ماهيته، والاستلاب الديني جزء من استلابه الكلي، إن عدمية العصر التي تقهر الفرد وتذله على جميع المستويات وتحمله على أنه يخون قناعته الذاتية من أجل أن يستمر على قيد الحياة تصيب ماهيته بالتجزؤ والتمزق. وهذا ما أكده ماركس في كلامه على النظام الرأسمالي في المخطوطة الاقتصادية الفلسفية ومقولات ماركس ما زالت صالحة لتفسير العصر. والمذهب وحده في صيغته الإيديولوجية، صيغة الاشتراكية العلمية المزعومة هو الذي أصبح خلف عصره عاجزاً عن تغييره، فالتغيير منوط بالإرادة الأخلاقية وحدها يقول حيدر، وليس بالحتمية الاقتصادية التي يعدّها ماركس أساس الاشتراكية العلمية.

وحتى لا ينغلق الباب أمام أي تفاؤل بالمستقبل فإن حيدر ومعه نيتشه وهيدجر يرون أن ثمة أملاً جديداً في الخلفية النفسية للعصر مع بلوغ الحداثة نهايتها أو حضيضها. مبشراً بفجر جديد يحمل معه الشفاء من هذا المرض بعودة القيمة للشخص والإقرار بتميزه عن الأشياء. وللوصول إلى هذه النهاية السعيدة لا بد من الارتباط بالمتعالي على حد تعبير كارل باسبرز علماً أن المتعالي عند أحمد حيدر هو عالم القيم، لأن المتعالي هو الذي يحرر الإنسان من القلق والخوف وينتشله من ضياع عالم الحياة.

المراجع:

1 ـ العطالة والتجاوز.

2 ـ البحث في جذور الشر.

3 ـ من الإيديولوجيا إلى الفلسفة.

4 ـ الجمالية والميتافيزيقيا.

5 ـ الخروج من الاستلاب.

مقدمة

"الأنا والآخرون"

علاقة الأنا بالآخرين وبتعبير أدق علاقة الأنا بالأنت من مشكلات الفلسفة المعاصرة التي نظرت إلى الوجود نظرة جديدة فبدأت بالوجود المشخص وبالواقع الإنساني اليومي واعتبرت ما في الإنسان من تفرد وأصالة من مقومات وجوده بعد أن كانت الفلسفة القديمة تعتبر الاختلافات الفردية أعراضاً زائلة لا يجوز التوقف عندها والمعول فقط على الجوهر العام أو القاسم المشترك بين الأفراد جميعاً.

والحق أن المشكلة ما كان يمكن طرحها قبل أن تطرح مشكلة الفردية وقبل أن ينظر إلى الفرد على أساس أنه عالم مستقل بذاته متفرد بأصالته مختلف عن الآخرين. فعندما كان الجوهر العام هو الأصل والتفرد هو العرض لأن التفرد منشؤه المادة والمادة عدم وبتعابير أرسطية: الصورة مشتركة بين أفراد

النوع جميعاً فهناك صورة للإنسان قوامها الحياة والعقل حسب الحد المنطقي وهذه الصورة هي التي تصور الهيولى (المادة) وتطبعها بطابعها ولكن الهيولى تملك بعض المقاومة فهي ليست مطاوعة تماماً للصورة وينتج عن عدم المطاوعة هذا أن يختلف الأفراد باختلاف هيولاهم في التطبع بالصورة، وإذا شئنا التشبيه استطعنا أن نقول إن الهيولى بمثابة المادة التي منها يصنع التمثال، فتمثال فينوس مثلاً صورة في ذهن النحات وهذه الصورة يقبلها الرخام أكثر من أنواع الحجر الأخرى، ويقبلها الصلصال أكثر من الرخام ويكون التمثال ناجحاً بمقدار مطاوعة المادة وقبولها للصورة والاختلاف بين تماثيل فينوس اختلاف في درجة المطاوعة والقبول، اختلاف منشؤه المادة، ويدل على نقص في براعة النحات، ونقص في قابلية المادة، فالاختلاف إذن عيب موجود في التمثال ينبغي أن تتجاوزه عن الرضا، وتستجلي الصورة من خلاله كما نتجاوز الأسلوب الرديء لنستشف الفكرة من خلال كثافته، وعمقه.

والهيولى من وجهة نظر الوجود هي العدم، لأنها القبول المحض ولأن قوامها من غيرها ــ الصورة ــ فهي ليست واقعاً ولكنها افتراض كالأثير، أو محل كالمكان يفترض لقبول

الصور وحلول الماهيات النوعية التي هي الوجود الحق وهي من وجهة نظر الأخلاق تمثل الشر فهي من جهة، الأثقال التي تهوى بنا إلى الأرض وتحول بيننا وبين أن نكون فكراً خالصاً، ومن جهة ثانية هي مصدر الرغائب والأهواء التي تشوش الفكر وتحول بينه وبين الرؤية الواضحة لأن قوام الإنسان هو الفكر.

فمبدأ التفرد الذي هو المادة هو العدم والشر، وهو دلالة السلب والنقص، فعلينا كما ترى هذه الفلسفة القديمة أن نتجاوز فرديتنا ونصعد نحو ماهيتنا التي توحدنا مع أفراد النوع جميعاً.

هذا هو التجريد: إنه لا يقيم وزناً للخصائص الفردية ولكنه يسقطها، يجردها كما يفعل الخريف بأوراق الشجر، ليبقي فقط على الهياكل الفارغة، حيث تبدو الأشجار جميعها متشابهة.

وهذا هو اتجاه الفلسفة التي تبدأ من العقل لتذهب إلى الوجود، من المفاهيم إلى الواقع، من الفكرة إلى الأشخاص، من القانون إلى الحادثة. إنه الاتجاه العقلي في المعرفة، المثالي في الوجود والأخلاق، فما دامت صورة الإنسان في الذهن هي الحيوان الناطق كما يحده المنطق. أي الكائن المتمتع بصفتي

الحياة والفكر فهذا هو الإنسان الحق، وما علق بهذا التعريف من أعراض أو شوائب يجب أن نسقطه من الحساب كما يفعل الكيميائي الذي يصطفي العناصر، وهكذا نحتفظ بالجوهر الذي ما هو إلا الفكرة متحققة في الوجود.

وواضح أن مثل هذا الاتجاه لا يطرح مشكلة العلاقة بين الذوات، إذ لا توجد ذوات متفردة مشخصة ولذلك فلا مجال لقيام أنحاء متعددة من العلاقات مثل الحب والكره، مثلاً، هاتان العاطفتان اللتان تتضمنان الاعتراف بميزات ومزايا فنحن نحب لصفات معينة ونكره لصفات أخرى، فالحب والكره اصطفاء، فنحن نصطفي إنساناً نغمره بالحب وآخر نلهبه بالحقد وهكذا... ولا اصطفاء إلا مع الاختلاف فلا يمكن أن أختار بين أفراد صنعوا على نموذج واحد، كالأفراد النسخ الذين خلقتهم الفلسفة القديمة.

بل يمكن أن تقوم أمثال هذه العلاقات ولكنها تتناول سطح الشخصية إذ تنصب على المزايا الفردية التي ليست سوى الأعراض الزائلة، ولعل هذا يفسر عدم قيام تصوف يوناني بالمعنى الحقيقي للتصوف. أي بمعنى قيام علاقة شخصية بين الرب والعبد قوامها المحبة والعناية اللهم إلا بشكل جانبي على

هامش الخط الفلسفي العقلاني تمثل في العقائد الدينية التي كانت شائعة يومذاك مثل الأورفية والفيثاغورية والديونيزوسية وهذا الشكل نفسه قد بقي ناقصاً كما يلاحظ برغسن لعدم وضوح فكرة الشخصية فالله في الفلسفة اليونانية ليس شخصاً متفرداً، كلا وليس مهتماً بأفراد هذا العالم وأشخاصه ولكنه قوة مغفلة تدير الكون أو هو حجر الزاوية في بناء الكون، إنه ماهية مجردة، ماهية بلا هيولى فهو أعلى درجة من درجات التجريد ماهيته إنه عقل محض يمكن للماهية الإنسانية أن تحاكيه بمقدار ما تتخلص من هيولاها وتخلص لجوهرها ولا يمكن أن تجعله يهتم بها أو يريد خلاصها أو يغير من موقفه منها.

السكون والتجريد أخص خصائص الفلسفة القديمة ولهذا فالماهيات في هذه الفلسفة لكونها متجانسة فليس بينها أي اهتمام ولكونها ساكنة فليس لديها أي تغيير في الموقف.

ولذلك نرى التصوف ينتظر القرون الطوال حتى ظهور المسيحية والإسلام يوم أعلن الفرد كائناً مستقلاً متفرداً بمصيره، متميزاً عن غيره، بينه وبين ربه علاقات شخصية، لأن الله نفسه شخص كامل، والله يعرفنا بما فينا من تفرد وأصالة

ونيـة خاصـة نحـو الإخـلاص أو السـقوط، وعنـد ذاك بـدأ علـم التصوف الذي يمكن تعريفه بأنه العلاقة بين الله والإنسان، أو سعي الإنسان للاتحاد بمصدر الوجود.

وهـذا هـو الموقـف الـذي تلقفتـه الفلسـفة المعاصـرة، أو الوجوديـة بصـورة أدق، فقـد بـدأت بالمشـخص بـالواقع العيـاني، بالوجود الإنساني اليومي، إنه تجريبية جديدة، تجريبية إنسانية، إذا صح التعبير وهي امتداد للتجريبية العلمية مع إضافة العنصر الانفعالي، التي عالجت المادة وانشأت العلم الحديث.

وعندما نذكر الاهتمام بالمشخص وملاحظة الواقع العياني فلا ينبغي أن نقفز رأساً إلى الوجودية وأعلامها وإنما يجب أن نتوقف عند برغسون قليلاً وهو آخر ميتافيزيقي أعطى مذهباً كاملاً، لقد كان هذا الفيلسوف جسراً بين القديم والجديد فهو كالقدماء قد بنى مذهباً متكاملاً، وأقام علم كينونة متماسكاً، ولكنه ميتافيزيقي تجريبي بدأ من المسلمات العلمية التي عاصرته، مثل نظرية التطور، والأبحاث الجديدة في علم النفس، وثار على الزمان المجرد المتشابه في آنائه، واخترع الزمان المشخص الذي لا تشابه فيه بين آن وآن وبعبارة فلسفية لقد دمج الوجود بالزمان فحركه وجعله متطوراً باستمرار ولكن لا

التطـور البيولـوجي الـذي يتسـاقط فيـه القـديم ليفسـح المكـان للجديـد، ولكنـه تطـور الديمومـة، الـذي يسـتمر القـديم فيـه إلى جانـب الجديـد، والـذي لا تتجـانس حالاتـه وإنمـا هـو مبـدع أبـداً جديـد الحـالات أبـداً، والأفـراد لا يعـدون عـن أن يكونـوا مـن حالاتـه، وهكـذا نجـد الفرديـة Individualité تولـد مـع برغسـون فكـل فـرد هـو لحظـة جديـدة مـن لحظـات الديمومـة تختلـف عـن اللحظتين السابقة واللاحقة لها أصالتها الخاصة وميزتها الفريدة. ولكـن هـذه اللحظـات أو الأفـراد ليسـت قائمـة بـذاتها ولكنهـا مظاهـر ليس إلا للوجود الحق أو الديمومة أو دفعة الحياة وهكـذا نجد برغسـون يعجـز عـن بيـان التفـرد وإعطائـه معنـاه، بسـبب أنـه تشـبث بـالموقف الميتـافيزيقي بـأن يجعـل للوجـود أصـلاً ثابتـاً لـيس الأفـراد سـوى تجليـات لهـذا الأصـل كمـا تكـون الأشـجار كلهـا تجليـات لقـوة الإنبـات الكامنـة في الطبيعـة كمـا تـرى الفلسـفة المدرسـية. والتعـارض بـين الوجـود existence والكينونـة etre بـين الإنسان الفرد القائم بذاته الحائز على مبدأ أفعالـه وبـين الحقيقـة الكليـة الـتي تـنظم الأفـراد جميعـاً. إن هـذا التعـارض تعانيـه الفلسـفة منـذ القـديم ويبـدو بصـورة حـادة في الفلسـفة المعاصـرة وليس هنا مجال بيانه.

المهم أن برغسون يعتبر نقطة انقلاب في تاريخ الفلسفة بوضعه المشخص مقابل المجرد والمتحرك مقابل الثابت والفرد مقابل العام، والحدس مقابل أو فوق العقل إلخ.. وهذه هي المواقف التي التقطتها الوجودية واشتهرت بها وقليل منهم من اعترف بفضل المعلم. مثل ميرلوبونتي.

حتى إذا ما وصلنا إلى الوجودية رأيناها تنثر هذا الكم المغفل المبهم المدعو بالإنسانية أفراداً قائمة في العرى ليس بينها أي اتصال مسبق.. فهي قد حطمت الجوهر الأرسطي إلى نتف لامتناهية، مختلف بعضها عن بعض هي الأفراد، وهكذا جعلت للفرد وجوداً قائماً بذاته، مستقلاً عن سواه، متفرداً بأصالته، هو وحده مبدأ أفعاله لا ينتسب إلى أية حقيقة مسبقة ولا يسبقه أي تصميم، إنه ليس وجوداً مليئاً ولكنه مشروع وجود، مشروع ملقي بين يدي صاحبه بالذات هماً ثقيلاً يحمله وحده بعد أن ألقي بلا عون في البرية الخالية، متروكاً لذاته التي عليه أن يعدو وراءها حتى إذا ما أمسك بها قذفها إلى أمام، ليتجاوزها من جديد وهكذا.. سلاحه الوحيد هو الحرية التي لا يستطيع إلا أن يستعملها وإذا رفضها فإنما يرفضها بفعل حر!!

هنا برزت مشكلة الآخر: بعد أن نثر الأفراد بلا عون في العراء كقلاع القرون الوسطى السابحة في الخلاء المتكبرة المثقلة بهمها وقلقها، المغلقة على ذاتها مع فارق بين هذه القلاع وأفراد الوجودية هو أن هذه القلاع مرتبطة بحقيقة مسبقة هي الكنيسة التي تجمع بينها وتستنفرها عند اللزوم لحرب صليبية، أما أفراد الوجودية فلا تربطهم أية حقيقة مسبقة لأن كل حقيقة فهي تالية للموقف الأولي، موقف المشروع، وهذا المشروع ليس شيئاً ولكنه ما سيكون ولا يمكن التنبؤ سلفاً بما سيكون وما سيكونه كل فرد مختلف عما سيكونه الآخرون، لأن الأمر ليس نمواً بيولوجياً حسب مخطط ولكنه إبداع جديد، تقوم به إرادة حرة والحرية ترفض أي مخطط موضوع.

بعد أن نثر الأفراد كذلك حارت الوجودية في طريقة جمعهم أو تحقيق الاتصال بينهم من جديد، لقد هرب المجاذيب من بناء المستشفى فأي طبيب ساخر فتح لهم الباب؟..

ولكن رغم أن المشكلة لم تطرح قبل الفلسفة المعاصرة فيمكننا أن نستشف ملامحها منذ ديكارت مع مطلع الفلسفة الحديثة.

لا ريب في أن الانفصال أمر تعانيه الحضارة الأوروبية قبل الوجودية ويمكننا أن نتلمس هذه الحيرة منذ ديكارت فهو بعد

أن اكتشف حقيقته الثابتة "أنا أفكر، فأنا موجود" قد ظل سجين هذه الأنا ولم يستطع أن يخرج منها إلى العالم خروجاً مباشراً بل إنه خرج بقياس منطقي فبرهن أولاً على وجود الله ثم جعل الله ضماناً لأفكاره عن العالم فاتصاله بالعالم، بالآخرين، ليس مباشراً وليس واقعة أولي كما يعلمنا الحس المباشر، فالعامي لا يحاول أن يقيم الدليل على وجود العالم ولكنه يعيشه بحواسه، أما ديكارت فيشك في هذا العالم ولا يستطيع ا لوصول إليه إلا على جسر من الأفكار المنطقية فهو لا يعرف مباشرة سوى نفسه ولا يستطيع الخروج منها إلا بوسائط منطقية وهذا موقف ورثته الفلسفة المثالية، فمنذ ديكارت سجن الفلاسفة في ذواتهم وأخذوا يمدون الجسور المنطقية في الهواء للوصول إلى العالم الذي رفضه الشك المنهجي الذي به دمر ديكارت الحس المباشر، ودمر تبعاً لذلك صلتنا بالعالم وأضيف باب جديد إلى أبواب الفلسفة هو البرهان على وجود العالم الخارجي بما فيه من ناس وأشياء.

ونضرب مثالاً على ذلك "ليبنز" فهو قد نثر الأفراد قبل الوجودية جواهر منفصلة سماها "موناد" إشارة إلى بساطتها ووحدتها هذه المونادات "ليس بينها أي اتصال وما يحصل لديها

من إدراك" والإدراك ضرب من الاتصال بين الذات والموضوع ـ ليس سوى توافق أزلي، فالله قد رتب هذه المونادات بحيث تتوافق أفعالها دون أن يتم بينها أي لقاء ومثاله واضح، إنها ساعات ضبطت بحيث ترن في وقت واحد وهكذا فعندما تناديني وأجيبك فليس نداؤك هو الذي أثار إجابتي ولكن الله الذي جعل مصيري ـ كل ما سأقوم به من أفعال وكل ما سيحدث لي ـ مختزناً في ذاتي، وقد رتب توافقاً بين حالاتي وحالاتك بحيث تتواقت في الزمان فنداؤك تواقت بفعل التوافق الأزلي المسبق مع إجابتي دون أن يتم بيننا أي اتصال.

ويمكننا أن نذكر فردية نيتشه المسرفة التي لا تسمح بأي تعاطف مع الآخر، والتي تجعل الصراع أساس العلاقات الإنسانية وحملاته على المسيح نبي المحبة مشهورة.

هذه العزلة المخيفة قد نقلها اشبنجلر إلى ما بين الحضارات وهي عنده شخصيات حية كالأفراد فهذه الحضارات عنده دوائر مغلقة لها مسار مرسوم بفعل القدر أو المصير تمر بمراحل الحياة ذاتها من ولادة وشباب وشيخوخة وموت محتم ولا يمكن أن يتم أي تقاطع بين أفلاك الحضارات فلا تأثير بينها ولا تأثر وإنما عزلة وصمت، ولا تستطيع أية حضارة أن تفهم عبقرية حضارة أخرى بمعنى روحها الأصيل ونظرتها إلى الوجود. وما ينتقل من

حضـارة إلى أخـرى مـن أفكـار وفلسـفات وأديـان لا يمكـن أن يحـتفظ بطـابع الحضـارة السـابقة. ولكنـه يتلـون بـروح الحضـارة الجديدة فالبوذية كما يفهمها الصيني تختلف عن بوذية الهند، إنها نظرة الصيني إلى الوجود معبرة عن نفسها بمفاهيم البوذية ويمكننا أن نضيف من عندنا مثال الماركسية وكيف أنها في الغرب تأخذ شكلاً عقلياً يمكن للإنسان أن يحوره وفي الصين شكلاً اعتقادياً يقربها من الحقيقة الدينية.

هـذا الاعتصـام الصـامت بالـذات، هـذا الأوقيـانوس مـن الصمت والنفي والهجر، والظلمة، وسوء الفهم، والتفاهم، قد استمر في الفلسفة والفن المعاصرين ولكن بشكل جديد، فعند "كافكا" أن الآخرين لا يعاملونني كذات ولكن كموضوع قابل للاستهلاك تحدد قيمته بمردوده، وعندما يعجز عن العطاء يلقى وينبذ كنفاية كريهة وروايته "المسخ" تعبير عن ذلك، فبطل القصة كان تاجراً نافعاً لأهله ولكنه عندما مسخ حشرة أصبح بنظرهم عبئاً، وفي أوج تعاطفه معهم أهانوه وطردوه من أ جل صفقة مادية تعقد مع غرباء.

وهذا الموقف قد استمر في الوجودية المعاصرة فخروج الذات عندهم من عزلتها سقوط مريع وكل فرد كما يقول "كيرجارد" "هو بذاته عالم له قدس أقداسه الذي لا يمكن أن تنفذ إليه يد

أجنبيـة" وعلـى الفـرد أن يظـل معتصـماً بهـذه الـذات "صـامتاً كالقبر، هادئاً كالموت".

وفي عـرف "هيـدجار" أن الاستسـلام لعـالم النـاس، عـالم "الـوهم" ضـرب مـن الهـرب مـن المسـؤولية، واسـتقالة مـن عـبء الوجود، والحرية.

حتى إذا ما وصلنا إلى "سارتر" وجدناه يزداد إصراراً على اعتبار الآخر مدعاة للسقوط وتوقف النمو، أن الآخر يجمدني في الموقـف، ويسـتهلكني في اللحظـة، ويجعلـني أداة لنمـوه هـو أي يحولني إلى شيء أو موضوع جامد، ويحول بيني وبين أن أتجاوز ذاتي، وأتعالى على المواقف الذليلة التي وقفتها ذات يوم، إنني في نظر نفسي مشروع وجود ينمو ويتطور ويتكامل باستمرار، أما الآخـر فينكـر عليّ ذلك ويلتقطني في موقف واحد من مواقف حيـاتي المتكاملـة ويجعـل مـن هـذا المـوف جمـاع كينونـة ومثالـه واضح: يضبطني الآخر في موقف مشين مثل النظر من ثقب باب ولكـني لسـت فقـط هـذا الموقـف فأنـا مفكـر ونصـير الحريـة، وشـجاع اشـترك في المقاومـة وعنـدي مشـاريع للمسـتقبل إلخ... أمـا الآخـر فيحـذف جوانـب شخصـيتي كلـها، ويلخصـني في هـذا الموقـف دون أن يسـمح لـي بتجـاوزه وأصـبح مـع ثقـب البـاب شـيئاً

واحداً في نظره، لقد سرق عالمي مني ولهذا فجوهر العلاقات الإنسانية في نظر سارتر هو الصراع، كل فرد يحاول أن يصيب مقاتل الآخرين بنظراته، بنوع من المباغتة، كل فرد يريد أن يجمد الآخر ويسلبه حريته ويحوله إلى موضوع ساكن، لكي يبقى ذاتاً تطرح التعريفات دون أن يشملها أي تعريف وقد لخص رأيه في مسرحيته "جلسة سرية".

وتبدو "سيمون دوبوفوار" في كتابها "بيروس وسينياس" الذي ترجم إلى العربية بعنوان "مغامرة الإنسان" مخلصة لهذا الرأي. فليس الإنسان ذاتاً إلا في نظر نفسه ولست سوى أداة في نظر الآخر، فالآخر لا يمكن أن يتبنى جماع كينونتي، ولكنه يأخذ من هذه الكينونة المواقف التي تنفعه وتخطئ المرأة إذا ظنت أن زوجها يحبها غير جميلة، أن الآخر يريدني في موقف ينفعه هو، و لا يمكن أن يقبلني غير متجل في مشروع مفيد، ولعلها في هذا تتابع رأي سارتر الإنسان بما هو عليه بالفعل، لا بالممكنات الغافية في نفسه.

هذا الموقف الفلسفي هو الذي تسرب إلى علم النفس فجعل الدكتور "هنري فالون" يؤكد "أن الأشخاص الذين يحيطون بالمرء ليسوا أكثر من مناسبات أو أسباب تسمح للشخص بأن

يعبر عن نفسه ويحقق ذاته". ويتم النمو "بأن يميز الإنسان بين هذه الذات وما هو ضروري لتكميلها: أي هذا الغريب الجوهري الممثل في الآخر". بين طرفين "الطرف الأول هو إثبات الشخص ذاتيته وهويته، وأما الطرف الثاني فهو كل ما يجب طرده من هذه الذاتية لصيانتها".

"الشريك أو الآخر".. يكون في الظرف العادية متضائلاً غير ظاهر، مكبوتاً كأنه موضع انكار ونفي من جانب إرادة السيطرة والتكامل التي تصاحب الذات.

وأنا هنا أنقل نصوصاً من مقال الدكتور "فالون": دور الآخر في تكوين الشعور بالذات.

هذا هو المناخ الفكري الذي سيطر على الحضارة الأوروبية في مرحلتها الحديثة وهو واضح في حياتها المعاصرة أيضاً، يتجلى في إمعانها في الجنس وإسرافها فيه، ذلك لأن هذه الحضارة بعد أن أدارت ظهرها للاتصال بالآخر، عن طريق الحب، لم يبق لديها سوى الجنس، والفشل في الحب لا بد أن يؤدي إلى استغراق في الجنس، وذلك لسببين: أولاً ــ لأن الحب هو الذي يضبط حياتنا الجنسية ويعطيها معناها فبينما الغريزة عند الحيوان تتبع إيقاعاً على درجة من الثبات تنظمه دورة الفصول والقوانين

البيولوجية، نجد الدافع الجنسي عند الإنسان متروكاً لصاحبه تنظمه فقط الإرادة الإنسانية التي تستمد تماسكها وقوتها من الإشباع العاطفي والدفء الإنساني. فإذا ما حيل بين الإرادة وهذا الإشباع فقدت قدرتها على الضبط وأفلتت الغرائز من عقالها.

إن الدافع الجنسي عند الإنسان هو مزيج من الغريزة الجنسية كما هي عند الحيوان والتعاطف الإنساني أو المحبة وتفريغ هذا الدافع من شحنته العاطفية يجعل الغريزة أفعى مسعورة تدب كيفما اتفق، فالدافع الإنساني إذن ذو تركيب مزدوج، وانفصال الخيط الأبيض "العاطفة" عن الخيط الأحمر "الجنس"، يؤدي إلى التمزق النفسي والعصبي.

وثانياً لأن بين الحب والجنس تعارضا في الاتجاه النفسي ففي الحب نحتفظ بذاتية الآخر ونتضاءل أمامه كي نرفعها إلى أعلى درجة من الغنى والشعور بالذات، فالحب إذن حوار بين ذاتين حرتين، إنه حضور يواجه حضوراً ثم يحاول كل من الطرفين أن يلغي إرادته ليندمج بالآخر.. لنلاحظ اللقاء السوي بين شريكين: إنه ضرب من التعاطف الصامت تبدأه العيون. تقول عينا أحد الشريكين للآخر: احملني إلى ملكوتي، اجعلني عظيماً في عينيك، اعطني أماناً ضد مصادفات الحياة، احملني فوق الزمن، احملني فوق الزمن، تجاوز بي الموت.

فتجيب العينان من الطرف الآخر: أجل إنك لكذلك في عيني ذات مطلقة تسير في الاتجاه المضاد للزمن، تطاول الأرض وتعلو عليها وعلى ضرورتها. ويرد الشريك الأول يا للفرحة العظيمة هو ذا الانتصار الحقيقي، وتترجم لغة العيون إلى لغة الحواس الأخرى، فيبدأ الطوفان دعاباً دافئاً، ليس للجنس إلا نسبة ضئيلة فيه، ولا يكون العمل الجنسي سوى تتمة لهذا اللقاء الروحي الرائع ومنه يكتسب قيمته ومعناه وفصله عنه مثل فصل أي عمل عن غايته: سقوط في العبث والفراغ.

أما في الجنس فنحن نجعل الآخر موضوعاً لنا ـ كما يرى سارتر ـ ونسلبه ذاته ونحوله إلى أداة وبذلك نمتلك الشعور بالذات الذي لا ينتقص منه حضور الآخر ونظرته بعد أن هبطنا به من مستوى الإنسان وسلبناه حريته، وكلما استطعنا الهبوط به إلى مستوى الشيء أو الأداة تخلصنا من الشعور بالخجل، لأن الآخر أصبح غائباً في نظرنا، وهذا ما يحدث مع البغايا حيث يفتح المرء أبواب كهوفه النفسية مُحدّثاً نفسه: إن هي إلا مومس، إن هو إلا لقاء عابر، والمضي بهذا الموقف إلى نهايته يوصلنا إلى السادية وهي التلذذ بتعذيب الآخرين، في هذا الموقف يشعر المرء بعزلة مخيفة فهو قد أصبح وحيداً بعد أن أعدم ذاتية الآخر، الذي لم يعد أكثر من جثة هامدة ويصرخ الحب المكبوت في أعماق

الذات موجهاً النداء للآخر كي يحقق معه الاندماج ولكن الآخر صامت لا يجيب، فقد اخترناه غريباً، ميتاً، أو أحلناه كذلك، فنمعن في الجنس كما حدث للدونجوان محاولين تحقيق الاندماج عن طريقه ما يقول "باربوس" ولكن الجنس وحده يفترض سلفاً إعدام الآخر، وهكذا نظل نقرع أبواب المستحيل.

هكذا أدى الانفصال الروحي بين الأفراد والحرمان من الحب إلى استسلام الإنسان المعاصر للجنس فنجد الشباب المعاصر يستغرق في الجنس بعد أن استعاض عن التعاطف الذي يستمر مدى الحياة بتعاطف لا يدوم سوى لحظة حيث نجد القلق على امتلاك الآخر الذي كان يعصف بفارس القرون الوسطى قد اختفى تماماً عند الشاب المعاصر، وتمزق سياق الحياة الإنسانية إلى لحظات منفصلة لا ينظمها ناظم الهدف أو الحب. ولا يفعل الأدب شيئاً سوى أن ينقل هذه الحياة بشكل مبالغ فيه.

والآن هل ندين هذه الحضارة الأوروبية ونزعم ـ اعتماداً على النصوص السابقة ـ إنها حضارة انفصال وقطيعة بين الذوات وإن أي جسر يصل الأنا بالآخرين معدوم لديها، وإن الوجودية السارتيرية بالذات هي الموقف الفكري الحق الذي يُعبِّر عن روح هذه الحضارة؟.

إن الوقائع تكذب هذا الادعاء فلولا التماسك الاجتماعي لما استطاع الغرب أن يحقق معجزة الصناعة التي أخص خصائصها تجاوز الفردية للالتقاء مع الجماعة واعتبار المشروع جماعياً ليس للفرد فيه سوى دور جزئي لا معنى له وإنما يأخذ معناه من الكل الذي يحتويه..

لقد شكا بعض الكتاب قائلاً: من المؤسف أن يعترف الإنسان بأنه لم ينتج في حياته كلها سوى الجزء الثاني عشر من دبوس ومع ذلك فقد استمر العامل الغربي يقوم بهذه المهمة الضئيلة التي لا معنى لها متجاوزاً ذاته مهملاً النشوة الفردية المبدعة مستعيضاً عنها بنشوة الإبداع الجماعي.

إن الاختصاص الدقيق وتوزيع العمل يدلان دلالة قاطعة على أن الغربي يستطيع أن يعتبر نفسه جزءاً من كل واسطة تتجاوز نفسها إلى غاية كلية هي المجتمع بكامله، ثم إن المؤسسات الاجتماعية في الغرب التي يدل نجاحها على أنها بلغت درجة عالية من التماسك لتعطي دليلاً آخر على مدى ارتباط الفرد بالآخرين، وقدرته على نكران ذاته من أجل قيمة تعلو عليه انعقد عليها الإجماع. فقد استطاعت بريطانيا أن تقود الحرب العالمية الثانية بأن تحولت إلى معسكر عن طريق استلام كل مواطن دوراً

جزئياً في المعركة في تنسيق مدهش دل على أن الفرد هناك يستطيع أن ينسى ذاته وأن يلخص نفسه بدور صغير، من أجل خير الجماعة المشترك. وكذلك ألمانيا الغربية التي استطاعت رغم التدمير الكامل الذي عانته خلال الحرب ورغم جيوش الاحتلال أن تبعث صناعتها بشكل يدعو إلى الإعجاب وما ذلك إلا لأنها ظلت محتفظة برأسمالها الأساسي الذي هو الأساس النفسي للحضارة الغربية لها، ونعني به شعور الفرد بارتباط مصيره مع مصير مجتمعه نحو قيمة جماعية عليا، وربما استطعنا دون أن نسرف في التعميم أن نصوغ قانوناً عاماً لتطور علاقة الفرد بالمجتمع زاعمين أن هذه العلاقة تمر بمراحل ثلاث..

أولاً ـ المرحلة الطوطمية: وهي مرحلة اللاتمايز المطلق بين الفرد والمجتمع حيث يسود مبدأ المشاركة. وينتفي أي شعور بالذات ويعتبر الفرد القبيلة كلها امتداداً له ويعاني كل خير وشر يمس حدوده ويقابل هذه المرحلة في نمو الفرد مرحلة الطفولة الأولى حيث تكون الحدود معدومة بين الأنا والعالم الخارجي وليست القبيلة إلا تطوراً بسيطاً لهذه المرحلة.

ثانياً ـ مرحلة الفردية الفجة وتشبه أسنان اللبن عند الطفل لا بد من سقوطها وتجاوزها وهي عبارة عن شعور مسرف بالذات

دون أي اعتبار للآخرين مع عجز عن التلاؤم معهم أو التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ويقابل هذه المرحلة في نمو الفرد مرحلة المراهقة وهي مرحلة فردية الرومنسية التي تلجأ إلى الطبيعة ـ والخيال لعجز المراهق عن التلاؤم مع مجتمعه.

ثالثاً ـ مرحلة التعاقد الحر، أو مرحلة النضج: بعد أن شعر الفرد بذاته وشعر بوجود الآخرين الذين لا يمكن حذفهم لجأ إلى التعاقد معهم ليبقى على مصالح الطرفين المتعارضين ويوفق بينها ويبين حدودها وهذا التعاقد هو أساس التكامل الاجتماعي وهو عبارة عن نمو الذهنية الموضوعية والاعتراف بحريات تغاير حريتي وبقوانين تخالف رغبتي.

وإن جـ.جـ. روسو ليمثل مرحلة الانتقال في الحضارة الأوروبية في المرحلة الفردية الفجة أي المرحلة الرومنسية إلى مرحلة التعاقد الحر وقد مر نفسه بالمرحلتين ففي المرحلة الأولى من الاعترافات وفي "أحلام المتجول الوحيد" نجده فردياً ومنسياً يلجأ إلى الطبيعة وفي "العقد الاجتماعي" يعود إلى المجتمع ليعترف بالآخرين ويعترفوا به.

إن عقده الاجتماعي يتضمن أن ينخلع الأفراد من حقوقهم ويسلموها للمجتمع الذي يعود فيوزعها عليهم بالتساوي وواضح

أن المجتمعات الغربية تعيش تحت هذا الشعار بعد أن بلغت مرحلة النضج.

لا نستطيع إذن إنكار التماسك الاجتماعي عند الغربيين فكيف نفسر المواقف الفلسفية التي أوردنا من ديكارت إلى سارتر؟

لا ريب في أنه يجب التفريق بين نوعين من علاقة الأنا بالعالم.

1 ـ علاقة الأنا بالآخر وهي علاقة عاطفية سالبة وموجبة موضوعها فرد واحد.

2 ـ علاقة الأنا بالآخرين وهي علاقة تلقائية بدائية في المرحلة الطوطمية وعقلية واعية في مرحلة التعاقد الحر وتتجه هذه العلاقة من الأنا إلى المجتمع بكامله وتنعكس في نظرة المجتمع إلى الفرد فتخلق عنده مشاعر مناسبة للنظرات التي تنصب عليه. إنها العلاقة بمعنى موضوعي مجرد هو المجتمع، بينما العلاقة الأولى هي علاقة بفرد مشخص.

على ضوء ما تقدم نجد علاقة الأنا بالآخر واهية في الحضارة الغربية فالانفصال بين الذوات هو السائد عدا بعض

النماذج المتأثرة بأفكار خارجية مثل "جبراييل مرسيل" الذي يناقض موقف سارتر في هذا الصدد ويزعم أن الجنة هي الآخرون وإن التواصل الإنساني هو الواقعة الأولية وهو متأثر في ذلك بالمسيحية.

أما علاقة الأنا بالآخرين أو الفرد بالمجتمع فهي على درجة عالية من التماسك عندهم كما بينا.

وتكاد تنعكس الآية عندنا فعلاقة الأنا بالآخر لا تزال متينة ولا يزال الاتصال بين الذوات قائماً ولا يزال الفرد ينشد المحبة ويجدها وقد تعرضت هذه العلاقة لهزات ففي عصر الانحطاط هبطت العلاقة بين الرجل والمرأة إلى مستوى الجنس وفي العصر الحاضر يوشك الرصيد الضئيل من الحب الذي بقي أن يتبخر بفعل التأثر بالحياة الغربية.

أما علاقة الأنا بالآخرين فلا تزال عندنا في مرحلة متخلفة تتراوح بين المرحلة القبلية ومرحلة الفردية الرومنسية ولم نكد نبلغ بعد مرحلة التعاقد الحر.

فهل نستطيع أن نحتفظ بصلاة المحبة بين الأنا والأنت ونحملها لمن يفتقر إليها ونطور علاقة الفرد بالمجتمع لنصل بها إلى مرحلة النضج التي نفتقر إليها.

إن هذا مطلبٌ معاصرٌ وهو مسؤولية التربية.

وأخيراً فهذه الرواية نمط من أنماط علاقة الأنا بالآخر وهي على ما فيها من نقص محاولة جديرة بالقراءة.

استيقظ فريد ذات صباح ونظر إلى سرير زوجته قرب سريره خالياً فعلم أنها نهضت قبله لتهيئ طعام الإفطار قبل أن يذهب إلى عمله، فتثاءب في سريره وألقى برأسه على الوسادة من جديد ودفء الرضا يغمره ويزيد في دفء الفراش، فقد كان إنساناً محظوظاً ينتمي إلى طبقة صغار البورجوازيين، كان مدرساً ناجحاً ذا زوجة جميلة ووفية ندر من أبناء طبقته من حظي بزوجة من نوعها وقد قضى معها قرابة العامين وها هما لا يزالان سعيدين كأنهما في شهر عسل دائم، وقد ازدادت سعادتهما أخيراً إذ أنهما ينتظران مولوداً منذ أشهر وهما يشتركان معا في ساعات الفراغ في إعداد المستقبل هذا المولود الذي يريدانه سعيداً طبعاً ويحرص فريد على أن يجنب ابنه كل العقبات التي لقيها في حياته مثل التربية غير العلمية التي تلقاها ومثل صعوبات الحياة الأخرى المادية، كان يحرص على أن يخرج ابنه رجلاً عملياً مختصاً، لا يستطيع أحد أن يزاحمه في رغيفه، إنه يريد أن يبخر

من ذهن ابنه، قبل فوات الأوان جميع الأوهام التي علقت برأسه والتي لم يستطع التخلص منها مثل الاهتمام بالأدب.

فقد كان صاحبنا مدرس أدب هاوياً يمارس كتابة القصة بين الحين والآخر، كان واحداً من كتاب يوم الأحد كما يعبر سارتر الذين لم يتفرغوا للكتابة بسبب أنهم لم يمتلكوا الشجاعة الكافية فظلوا مترددين بين عالمين: عالم الكتابة وعالم الحياة اليومية، إنهم أناس يفتقرون حقاً إلى التضحية فهم يريدون الحصول على كل شيء: على الزوجة والدخل الثابت والوضع الاجتماعي وذيوع الصيت والنجاح الأدبي، والحق أن فريد يحتقر نفسه عندما يفكر بهذا كله فهو قد عانى الصراع زمناً بين المهنة والرسالة بين الحياة اليومية والحياة الخالدة أو بين العيش والحياة كما يعبر "إليوت" ولكنه لم يستطع أن يغلب إحداهما على الأخرى، فظل مترنحاً متردداً كمجذوب لا يستطيع أن يرجع إلى عالم العقلاء ولا يستطيع أن ينتسب نهائياً إلى مملكة المجانين.. ولكن هذا الوضع القلق لم يمنع فريد من أن يعيش سعيداً وأن ينتج قصصاً ناجحة وأن يفوز ببعض المسابقات الأدبية وأن يملأ الأطر الاجتماعية التي ينصبُّ فيها الرجل العادي مثل المهنة والصداقة والزواج وغير ذلك دون أن يلقى بذلك صعوبات كثيرة، لقد برر الأمر لنفسه بطريقة واضحة

متماسكة وقوية: إن سارتر يسخر من كتاب يوم الأحد بسبب أن مجتمعهم يسمح بتفتح المواهب أن الموهبة الوسط تستطيع أن تلقى هناك عناية تكفيها وتستطيع أن تجد حياة كريمة، أن نظرتهم هناك تختلف، إنهم يستثمرون المواهب كما تستثمر آبار البترول وكما توجد روائز جيولوجية لقياس الثروة الباطية. توجد كذلك روائز للكشف عن مواهب البشر في شتى المجالات. أجل لا عذر للموهوب هناك إذا لم يتابع موهبته فهي كفيلة بحياته ولكنك هنا ستموت جوعاً إذا تابعت موهبتك، وما من أديب هنا سوى بعض الذين بلغوا الشاطئ بعد كفاح مرير جداً وبعد عمل مختلف لا يمت إلى الأدب بصلة، ما من أديب يعيش حقاً من قلمه.. بعضهم يعيش من أعمال أخرى والبعض الآخر من حماية الدولة والبعض من مراعاة الذوق السائد وهلما جرى.. إن الجمهور لم يتكون هنا بعد وقد تعاونت على ذلك عوامل كثيرة لا فائدة من ذكرها لكثرة ما ترددت على الألسنة والأقلام، وخلاصتها أن جمهورنا لم يرتفع إلى مستوى ما فوق الخبز، إلى مستوى "الكلمة" ولا يمكن تبرئة الكتاب عندنا من نصيبهم في المسؤولية فهم لم يرعوا هذا الجمهور ولم يأخذوا بيده ولم يقفوا إلى جانبه ولكنهم وقفوا في أغلب الأحيان إلى جانب السلطة التي ضمنت لهم الحماية فاستعاضوا بذلك عن حماية الجمهور ودعمه

شـأنهم في ذلـك شـأن حكومـات لا تسـتند إلى الشـعب، فتقـع فريسـة للسـيطرة الخارجيـة وهـي لـو عـادت إلى شـعبها لضـمنت حريتها وكرامتها ولكنها ليست مسؤولية الأدباء وحدهم وإنما هي مسؤولية عوامل كثيرة لا يمكن للأديب وحده أن يرفعها..

ولكن مسؤوليته لا تزال قائمة فلماذا لم يتفرغ لينتج أدباً حياً يستطيع أن يوقظ الجماهير أو الأجيال القادمة من الجماهير على الأقل، وبذلك يرفع الشعب إلى مستوى الكلمة، إذا كان واثقاً من رسالته وهو شديد الثقة والتعلق بها. فلماذا لا يتابعها إلى النهاية ويتنازل عن المجد العاجل.. لقد ا خترت أسهل الطرق ـ هكذا كان يلوم نفسه ـ وفضلت أن تعيش وتكتب كتابة وسطاً على أن تكتب الروائع دون أن تهتم بالعيش، إن الحياة لا تبالي بالفرد فإذا شئت دفع عجلة التقدم إلى الأمام فعليك ألا تلقي بالاً إلى حياتك الفردية.. ثم يصيبه الدوار عند هذه النقطة فيرجع إلى التبرير من جديد وهكذا كان فريد يعيش في صراع تقطعه محطات من السلام والسكينة يعيش فيها إنساناً سوياً زوجاً هادئاً. ولكن شيئاً واحداً كان يرافقه في رحلته نحو الجنون هو حب زوجته فقد كان يحبها حباً يندر في طبقته وفي جيله وكانت هي من اللواتي ينظرن إلى الزواج كرسالة، فقد كانت تعتبر زوجها أكثر من إنسان عادي وإن له مهمة وإن القدر

قد اختارها لمعاونته على عبور صحرائه ولذلك فقد كانت نظرتها إليه هي هي في لحظات سقوطه وسموه على السواء، وعندما كان الشعور بالتفاهة والجبن والتخلي ينتابه فقد كانت زوجته تحمله بنظرتها إلى ملكوته فتحول بينه وبين التهافت والتبدد، ولم يقطع هذا الحوار الذاتي سوى دخول زوجته، إنها تدخل غالباً لتوقظه في مثل هذا الوقت فهي تنهض قبله دوماً فتهيئ الإفطار ثم ترجع إليه سعيدة إذ إنها ضمنت له ساعة كاملة من نوم الصباح تعوض عن الجهد الذي بذله في إعداد الدروس وتصحيح وظائف الطلاب وكتابة القصص.

رآها تدخل الغرفة ولم ينتظر أن تبدأه، بتحية الصباح فقد أراد أن يفاجأها بيقظته المبكرة هذا اليوم..

ـ عم صباحاً يا ملاكي الحارس .. ولكنها لم تجب ولم يبد عليها أنها رأته وظلت نظرتها حائرة في أرجاء الغرفة، وبعد أن ألقت على سريره نظرة أشاحت بوجهها عنه كمن لم يجد ضالته. كرر النداء من جديد بصوت واضح.. عفراء إنني لا أزال في سريري.

ولكنه لم يجد جواباً هذه المرة أيضاً وظلت الزوجة واقفة تنتظر فقد خيل إليها إنه نهض إلى الحمام ليغسل وجهه، فاستوى في سريره وصرخ ملء صوته: عفراء ألا ترينني يا عفراء؟.

ولم تغير من جلستها على الأريكة، ولم يبدو عليها ما ينم على أنها شعرت بوجوده فبدت له على هذا النحو مرعبة كالكائنات الخيالية أو كالتمثال الحجري الذي كان يجلس مع الدونجوان دون أن يكلمه فهمَّ أن ينهض من فراشه ويذهب إليها ليضمها إليه إذ لم يبق سوى ذلك ليشعرها بوجوده لكنها نهضت وخرجت وهي تناديه: فريد لقد تأخرت، أين أنت يا فريد. وكان صوتها يتجه نحو الحمام بعد أن صرفت النظر عن غرفة النوم.. فهرع من سريره وقد اعتراه ما يشبه الجنون وقفز أمامها وقطع عليها الطريق وصرخ: هاأنذا يا عفراء.

ولكنها تحولت عنه كمن يتحول عن جدار ومضت تصرخ من جديد أين أنت يا فريد ومضى يصرخ من ناحيته أيضاً ولكنها لم تسمعه ومضت تبحث عنه وتناديه بأعلى صوتها. رجعت إلى غرفة النوم من جديد فتأكدت أنه لم يرتد ثياب الخروج ولا يمكن أن يخرج بثياب النوم فجددت النداء وأخذ يجيبها كالمجنون ويناديها بما يشبه صراخ الأطفال دون أن تلتفت إليه ودون أن تشعر بوجوده.

شعر أنها لا تراه ولا تسمعه فهو الآن خارج حاستي السمع والبصر فلم لا يجرب حاسة اللمس؟ اندفع نحوها واحتضنها بين ذراعيه ودفن وجهه بين كتفيها شبه باك وهو يقول لها بما يشبه

النشيج هاأنذا يا عفراء، ها أنا ذا "فريدك" الذي لا يستطيع أن يحيا بدونك ولكنها تخلصت منه مذعورة كمن احتضنه شبح غير مرئي وأطلقت صرخة رعب ممزقة واندفعت نحو غرفة النوم وهي ترتجف وتصرخ: إلي يا فريد إلي إن الأشباح تهاجمني. فصرف النظر عن هذه الوسيلة التي ستزيد الأمر سوءاً وخطر له أن يجرب وسيلة جديدة، لم لا يكتب لها، أن الحرف المكتوب لا يمكن أن يصبح وهماً فتناول صفحة من الورق وكتب عليها:

إن فريد منتصب أمامك يا عفراء وهو يحمل لك هذه الورقة فهل ترينه، إذا كنت لا تستطيعين الكلام فأجيبيه كتابة. وحمل الورقة بيديه الاثنتين وذهب إلى زوجته وكانت تجلس في غرفة على الأريكة لا تزال مذعورة من عناقه وكانت دموعها متجمدة على وجهها ونظرتها مزيج من الخوف والحزن العميق كطفل عذب دون أن يقترف أي ذنب، تقدم منها وركع أمامها وبسط الصفحة على مستوى نظرتها وانتظر صامتاً. ولكنها كانت لا تزال تنظر في الفراغ ولم يبد عليها أنها رأت شيئاً.. ألقى بالورقة من يده وظل راكعاً يتأمل زوجته وهو يبكي بصمت. لقد كانت في تلك اللحظة أشد جمالاً منها في أي يوم مضى، لقد رجعت طفلة حزينة لا يستطيع أن يفعل من أجلها شيئاً وإذا هو حاول أن يمسح دموعها فلسوف يزداد ذعرها إنه لا يملك

إلا أن يراقبها وهي تتألم وتندفع شيئاً فشيئاً نحو الحيرة والجنون، إنه يرجو أن تعتقد أنه خانها وهرب بثياب النوم من المنزل لكي تظل محتفظة بسلامة عقلها ولكي تظل على صلة بالواقع فلا تخسر نفسها فهذا أهون من أن تظل حائرة تمزقها المخاوف كمن ألقي فجأة في عالم من الرعب والوحشة..

لقد رمي بعقاب صارم لا يتذكر أنه أتى جرماً يتناسب معه، لقد عزل عن زوجته بطريقة قاسية بل أقسى من أية طريقة أخرى أنه لم يعزل عنها بسبب سوء التفاهم أو القطيعة أو الموت. سيظل يراها إذن دون أن تراه ودون أن يستطيع من أجلها شيئاً ستظل تتمزق من الحيرة وتتعذب بالظنون وتعاني غيرة الحب المهجور وألمه دون أن يستطيع أن يقول لها كلمة. إنه لن يستطيع أن يقدم لها تفسيراً أو عزاء وكان لا يزال يبكي بصمت فقد تعب من الصراخ.

وبينما هو كذلك اندفعت نحوه حزمة من ضياء الظهيرة ودفئها فشعر أن النهار قد انتصف وأنه لم يذهب إلى المدرسة، وشعر بحاجة إلى الخروج عله يجد مخرجاً وارتدى ثيابه على عجل ودونما عناية، واندفع نحو باب الغرفة مزمعاً الخروج. كانت عفراء لا تزال على جلستها مخبولة كمن استيقظ من ضربة عصا قوية، حزينة كمن فقد ما لا يعوض. إنه لا يستطيع

أن يكلمها ولا يستطيع أن يحملها على مشاركته ولا يستطيع أن يودعها ولا يستطيع أن يفعل من أجلها شيئاً.

يا عفرائي الحبيبة ـ وجثا على ركبتيه يبكي من جديد ـ لو ترين حزني إنني لا أزال كما تعهدين مخلصاً مؤمناً بك إلى الأبد. كان واثقاً أنها لن تسمعه ولكنه استمر بهذيانه بدافع ملح وخرج من البيت.. كان يوماً جميلاً من أيام شباط وقد كان عازماً على أن يخرج مع عفراء في اليوم التالي الجمعة إلى البحر حيث يقضيان النهار في مقهى على الشاطئ ويتناولان طعام الغداء كما اعتادا أن يفعلا في الأيام الجميلة. كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة ظهراً وبدأ الشارع يزدحم بالطلاب والمدرسين فوقف على الرصيف ينتظر زميله كمال فقد كان في حاجة إليه في هذه المحنة الجديدة ولكنه بدأ يلاحظ أن طلابه لا يحيونه كعادتهم وهم يمرون به وكذلك الزملاء لا يبدو عليهم أنهم يرونه فأرعبته الفكرة ولم يشأ أن يصدق نفسه فلعلهم لا يميزونه. ولكن ما الذي يمنعهم من تمييزه؟. إن النهار رائع النور وها هو أمامهم على الرصيف. وكان بعضهم يكاد يصطدم به دون أن يلتفت إليه وبدا صديقه كمال مقبلاً فلم يستطع انتظاره. لكنه هرع نحوه وحياه بصوت واضح: مرحباً كمال. ولكن كمال تجاوزه دون أن يبدو عليه أنه رآه أو سمعه. لم يكرر

المحاولات فقد كانت تجربة الصباح مع زوجته قد زرعت في نفسه يقيناً جازماً بأنه قد أصبح إنساناً لا مرئياً، وكان يظن أن زوجته وحدها هي التي عزلت عنه ولكنه تأكد الآن أنه عزل عن أصدقائه ومعارفه وسائر البشر. لقد حجب عن الناس إذن، حجب عن سمعهم وبصرهم وعليه ألا يقترب منهم إذا كان يريد بهم خيراً لئلا يثير في نفوسهم المخاوف. إنه لم يعد بحاجة إلى الكلام فلن يسمعه أحد ولكنه ظل يكلم نفسه وظل في حوار دائم مع ذاته. كان أشبه بذئب سقط في كمين ولكنه ظل يثب في هوته محاولاً الخروج ولا مخرج إذ لا معين له في هذا الصمت الأبدي الذي فرض عليه. كان يسير على غير هدى دون أي اهتمام كمن يتجول في برية خالية دون أن يخشى نظرة التلاميذ الذين لا يجوز أن يروا الأستاذ متسكعاً ولكنه مع ذلك شعر بضيق شديد وانحدر نحو البحر. كانت الشوارع تغص بالناس الذين دفعهم الدفء إلى الخروج من منازلهم للقاء الضياء الدافئ وتأمل البحر، وكان يسير بين هذه الجموع متردداً بين أن يحافظ على هيئته التي (كان) يحافظ عليها أيام كان إنساناً اجتماعياً وبين أن ينطلق على هواه. كان يشعر بالدهشة رغم قناعته بأنه أصبح لا مرئياً، كان لا يزال مندهشاً لموقف الناس منه ولإنكاره فجأة من قبل العالم وقد استمر مسافة طويلة يحيي

معارفه في الطريق دون أن يتلقى جواباً، ويغض الطرف أمام النساء ويفسح لهن الطريق تماماً كما تقتضي اللياقة وقد وضع يديه في جيوبه ثم تذكر اللياقة فسحبهما بسرعة وأسبلهما على جانبيه واستمر في مشية مؤدبة، كان يريد أن يظل في عالم الناس وكان يدفعه إلى محاكاتهم شيئان: العادة من جهة والرغبة في أن يظل مهذباً من جهة أخرى على أنه ظل في حنين دائم إلى مشاركة الآخرين. وبعد أن رسم المدار التقليدي للناس وهو شاطئ البحر كان التعب والجوع قد نالا منه وقد تذكر أنه لم يذق طعاماً منذ مساء البارحة وبدأ يفكر في زوجته من جديد: ترى كيف حالها الآن؟ إلى أي مناخ نفسي سيء قد دفعها دون أن تكون له إرادة في الأمر؟ ماذا يجول في ذهنها الآن من أفكار، ما فكرتها عنه؟ وتمنى من جديد أن تعتبره زوجاً خائناً فإن هذا سبب معقول يبقي على صلتها بعالم المنطق والواقع.

وصديقه كمال مدرس الأدب ماذا يعتقد الآن بشأنه وكيف يفسر غيابه عن المدرسة هذا اليوم ولم لا يجرب اللقاء معه من جديد؟ ولكنه تذكر عبث محاولة الصباح وتذكر صديقه الآخر أحمد المهندس، ذلك الذي تعاطف معه في كل محنة كأحسن ما يكون التعاطف، لماذا لا يحاول اللقاء معه من

جديد، لقد تعلم من الكتب أن التعاطف يمكن أن يؤدي إلى تخاطر عبر المسافات الطويلة فيشعر الصديق بحال صديقه، فلماذا لا يستطيع التعاطف أن يمزق هذا الحجاب الغامض الذي حجبه عن الناس المحيطين به ولكنه تذكر زوجته: إن جميع صلاته العاطفية تبدو ضعيفة بالنسبة لصلته بزوجته وقد ارتفع توترهما النفسي هذا الصباح إلى درجة البكاء دون أن يشعر أحدهما بالآخر.

لقد حجب عن العالم إذن وعليه أن يوطن نفسه على هذا الأمر، حجب عن حواسهم وها هم معارفه يمرون به عابرين دون أن يبدو عليهم أنهم رأوا شيئاً. وحجب عن قلوبهم وها هي زوجته وقد تركها في حال أقرب إلى الجنون بسبب لهفتها إلى أن تراه، لقد عوقب إذن كطفل بريء وبدأ في تلك اللحظة طفلاً بريئاً متألماً عُذِّب دونما شفقة ولسبب يجهله تمام الجهل. وبدأت ساقاه تنوآن بحمله، وخطر له أن يتهالك على الرصيف ما دام الناس لا يرونه ولكنه لم يستطع الموافقة على الفكرة رغم أن نفسه تهيأت لاستقبالها. كانت لا تزال في نفسه بقية من عالم الناس الذي فقده حملته إلى المقهى القريب لكي يجلس كسيد مهذب ولكن في صحراء ليس فيها ذرة من المحبة أو التفاهم.

كان حديث الناس لا يزال يقرع أذنيه وكانت هناك بعض المواضيع الحبيبة إلى نفسه إلى جانب المواضيع التافهة، فقد جلس على المنضدة إلى يساره بعض الزملاء الذين كان يجلس معهم أيام عزوبته ويتبادل وإياهم الحديث حول الفن وحول وضعه الحالي في المجتمع وكيف أن القدر (كانوا يؤثرون هذا التعبير) قد حملهم بالقوة على أن يغرقوا في مستنقع الحياة اليومية وأن يستسلموا لعالم الـ"هم" أو الآخرين على تعبير "هيدكار" هرباً من مسؤوليتهم أمام ذاتهم وأمام مأساة الوجود.. وأوشك أن يردد الكلمات بصوت مرتفع لولا أن شغل بصوت أحد زملائه على المنضدة إلى يساره وهو يبكي الفنان العظيم الذي وئد في ذاته بسبب قسوة الحياة ومفارقات القدر فيرد عليه زميل آخر: لا ينبغي لك يا صديقي أن تلوم القدر من وجهة نظر سارتر حول الممكن والواقع وأرجو أن تتذكر مثاله: عندما مات شكسبير لم يمت فيه أكثر من شكسبير المكتوب كما لم يمت في كورني أو راسين شيء لم يتحقق بالفعل. إن الناس هم ما هم عليه بالفعل، لا الممكنات الخافية في نفوسهم. إن الممكن هو سراب الحاضر كما يعبر برغسون، هو نظرة خلفية، بعد أن نكون قد بلغنا قمة الحياة، ولكن ما دمنا ننظر إلى أمام لا يوجد سوى ممكن واحد هو الطريق الذي سنسلكه. ثم تفرع

الحـديث فـالتقط طـرف الخـيط زميـل آخـر قـائلاً. انظـروا إلى برغسون فيلسوف الحرية كيف ينفي الممكن. ما الحرية إن لم تكن حرية اختيار الممكنات ولو عرفتم رأيه في العدم وأنه سراب أيضاً ـ والحرية غير ممكنة بدون العدم لأن اختيار أي ممكن إعدام لسواه ـ لعلمتم أن قضية الحرية عند برغسون فارغة، فاعتدل زميل آخر في جلسته وقال: إنك لم تأت بجديد هذه اعتراضات عبد الرحمن بدوي في الزمان الوجودي فأجاب الأول: ولكنها اعتراضات حقيقية.

كان الجوع قد اشتد بفريد وكانت الساعة قد أوشكت على الثانية بعد الظهر وكانت أطباق السمك المشوي المغمور بالتوابل تزيد في جوعه وشعر أنه في حاجة شديدة إلى الطعام ولكن ما الطريقة إلى ذلك؟ إنه لا يستطيع أن ينادي الخادم ولا يستطيع الاتصال به بأية طريقة.. ودفعه الجوع إلى النهوض والتجول في أرجاء المقهى دون أن يخشى اللوم فقد أصبح لا مرئياً ولكنه مع ذلك ظل محتشماً وظل يتجنب المرور بمجالس النساء والغرباء مكتفياً بالممرات الرئيسية بين المناضد معرجاً على الزملاء والمعارف يرافقه ذلك الأمل اللامعقول في أن يعرفوه ويبادلوه الحديث. خطر له أن يدخل مطبخ المقهى ويتناول طبقاً من السمك المشوي ويأكله ولكنه تذكر أن العملية لا بد أن

تسبب ارتباكاً في العمل ومتاعب لأحد الخدم الذي سيضطر إلى دفع الثمن من جيبه الخاص فصعب الأمر عليه ولم يجد بداً من الرجوع إلى البيت. كان لا يزال مفتاح الباب الخارجي في جيبه ففتح الباب ودخل وهناك وجد زوجته وصديقه كمال جالسين وكانت الزوجة تتابع كلامها.. كلا لم يظهر بيننا طيلة عامين أي خلاف ولم يبد عليه أنه يضيق ذرعاً بالزواج ومسؤولياته. لقد كان مرحاً وقد هيأت له كل أسباب الراحة ولست أعرف سبباً يدعوه إلى الفرار. فرد كمال: حقاً إنه لأمر غريب أن يختفي بهذه الطريقة ولكني أميل إلى الاعتقاد بأنه ذهب لبعض شؤونه ولا بد أن يعود وهو لم يختبرك لأنه لا يريد أن تشاركيه في حمل المتاعب، إني أعرفه طاوياً على الألم متبسطاً في المرح حريصاً على إبعاد أصدقائه عن جو متاعبه الخاصة، إني واثق من عودته.

عاوده الحنين إلى لقاء زوجته وصديقه ولكنه لم يحاول لإدراكه سلفاً عبث المحاولة. دخل المطبخ فوجده على حاله بالأمس إذ لم تقم زوجته بأي عمل فيه، فهي لم تغسل أطباق المساء ولم تطه أي طعام ولا يبدو أنها تناولت أي طعام بعد. تناول رغيف خبز وحشاها بالجبن وأخذ يزدردها على مهل مستعيناً على ذلك بحبات زيتون كان يلتقطها من صحن المساء، كان

يأكل بصعوبة إذ لم يكن في وضع طبيعي، وكان يشعر بأن وضعه غير مستقر وإنه لن يستطيع أن يعيش على هذا النحو ولا بد من تغيير هذا الوضع، ولكنه لا يستطيع القيام بأي عمل وليس له سوى أن ينتظر المجهول، نفس المجهول الذي جعله مجهولاً لا مخرج له من الظلمة إلا باليد التي ألقته فيها. ثم ترامى إلى سمعه وهو في المطبخ يبتلع طعامه بصعوبة صوت صديقه كمال يودع زوجته ويطمئنها ويدعوها إلى الانتظار، فلا يكفي يوم واحد للحكم على إنسان نعرفه شاعراً بمسؤوليته على النحو الذي عرفنا عليه فريد. وخرج إلى باب المطبخ، كان يبدو على الصديق أنه مستعد للقيام بأية تضحية وكانت الزوجة تشعر بالاطمئنان إليه وبالاحترام نحوه وكان في عينيها توسل بائس، وقد رافقت الصديق إلى عتبة الدار وعندما أصبح خارج المنزل أغلقت الباب ورجعت إلى الغرفة وأخذت تنشج بصوت مسموع قطع على الزوج طعامه فلم يستطع الاستمرار فألقى بالرغيف من يده وأسرع إلى باب الغرفة يتأمل زوجته وهي تذرف الدموع دون أن يحاول الاقتراب منها. كان يبدو في بلاهة طفل كبير، فقد تعاون شعوره بالعجز مع شعوره بالغرابة على جعله أقرب إلى اللامبالاة وإلى تعطيل ملكاته النفسية من الفعالية التي لم تعد

مجدية. وشعر بإرهاق لا مثيل له وبنضوب حيوي مصحوب بنضوب نفسي وجر رجليه إلى الغرفة وتمدد على أريكة قرب زوجته مستسلماً لما يشبه النوم دون أن يكف عن الشعور بوجود زوجته وبنشيجها، كان متردداً بين الحلم والواقع؛ كان يحلم بسهرات الشتاء الجميلة مع زوجته وأصدقائه وبالأحاديث اللطيفة التي كانوا يتبادلونها وكان يرجع أحياناً إلى الماضي فيتذكر طفولته ومرحه ولكنه انتفض في مقعده انتفاضة قوية جعلته يستيقظ على ذكرى كابوس مزعج فقد خيل إليه أنه عاد طفلاً يلعب مع رفاقه وقد دفعه أحدهم من على جانب الطريق نحو الوادي، كان العرق الغزير يغمر جبينه، وشعر بأن دماغه قد أصبح كثيفاً كان من الإسمنت المسلح، كان خائفاً. وكان خوفه من ذلك النوع الذي تكلم عنه الكتاب والذي لا اسم له ولا موضوع، كان من نوع الخوف الذي كان يعانيه في طفولته عندما يخرج إلى الحقل في ظهيرة خريفية حيث تكون البرية خالية من الناس والأشياء وليس فيها سوى الوحشة القاسية. حقاً إن يقظة نصف الليل كانت تسبب له مثل هذا الخوف أحياناً ولكنه كان يطمئن إلى وجود زوجته بجانبه وإلى أنها على استعداد لتضمّه إليها لو أفضى لها بمخاوفه، ولم يحدث يوماً أن

أوقظها في مثل هذه الحالة ولكنه كان يرتاح إلى أنها على استعداد لأن تستيقظ وتبدد وحشته بأنسها ومحبتها. أما اليوم فقد استيقظ كطفل رقد في البرية حتى حلول الظلام ثم استيقظ فجأة وقد حاصرته ذئاب تعوي من كل جانب.

كان محاصراً بطريقة عجيبة، بترك الناس له وتخليهم عنه، بالفراغ والخلاء والوحشة، كان محاصراً بموت الكلمة وكان هذا أقسى شيء. فها هي زوجته إلى جانبه مهدمة كمن أطاحت به ضربة عصا قوية، وها هو إلى جانبها يرتجف مذعوراً. فما أحوجها إلى حنانه، وما أحوجه إلى محبتها ولكنهما جزيرتان ضالتان في بحر من العدم والظلام لا يمكن أن تعبره سفينة قط. أخذ يبدد مخاوفه بالصور الجميلة فبدأ يحلم بالناس وقد خرجوا لملاقاة الغروب ـ وقد أحب ألوان الغروب دائماً ـ بأعداد ضخمة إلى حد ضاقت معه الطريق كما يحدث عصر الجمعة مثلاً. وحلم أنه وزوجته يجلسان بين الناس في المقهى وهما يشربان بعيونهما من نبيذ الأفق ـ على حد تعبيره لزوجته ـ كان بحاجة إلى أن يضيع في زحام شديد ولو بين أناس لا يعرفهم فالمهم أن تمتلئ بريته الخالية. وبقي على تلك الحال طيلة فترة الظهيرة وعندما حل المساء آثر أن يبقى قرب زوجته على أن يخرج لملاقاة

الغروب رغم شعوره أنه لا يستطيع أن يقدم لها أي عون، ولم تبدد خوفه صور الزحام الشديد التي حشد ذهنه بها فهرع إلى غرفة النوم وتخلص من ثيابه واندس تحت الدثار وغمر به وجهه وأخذ يرتجف بعنف كالمحموم الذي سقط في بركة ماء.

إن نومه متقطّعٌ وشعوره يتردد بين النوم واليقظة كذبالة مصباح أوشك زيته على النفاد لا يستطيع أن ينطفئ أو يتوهج. وكان يستيقظ بين حين وآخر على كوابيس من نوع السقوط في الفراغ إذ ينتفض انتفاضة قوية يصحو بعدها فترة مخيفة ثم يلقي بنفسه بين براثن نوم ينبذه عنه وهكذا...

استيقظ في الثانية عشرة ليلاً على النور وقد أضيء فجأة من قبل زوجته وقد بدأت تتجرد من ثيابها استعداداً لارتداء ثياب النوم، كم تبدو رائعة القوام ومع ذلك فقد تشبث بوجهها لا يحيد ببصره عنه وكلما شعر بأنه يوشك أن ينزلق نحو مفاتن جسدها يزداد تشبثاً بالوجه والعينين مع شعور بالجهد كمتسلق صخرة ملساء..

كان يشعر بأن جسدها قد أصبح محرماً عليه لأن اللمسة الرفيقة منه قد تؤدي بها إلى الجنون، ولذلك فقد كان يشيح ببصره عنه كبدائي ألزم نفسه بتحريمات قاسية غير معقولة إلا

في نظر صاحبها. وألقت الزوجة بنفسها في سريرها وأطفأت النور وكانت زفراتها تتصاعد من تحت الدثار مع بعض الأنات أحياناً.

استيقظ مع آذان الفجر وقد لذ له سماع الصوت الإنساني الذي بدا نداء مطمئناً في وحشته. ولكن ما أشد حاجته إلى أن ينادي باسمه الشخصي وإلى أن يوجه إليه الخطاب إذ ماذا يجديه أن ينادي الناس ولم يعد منهم. استيقظ مرهقاً كما يحدث بعد نوم لا نستسلم له تماماً، ولم يغادر الفراش ولكنه رفع الوسادة وأسند ظهره إليها بعد أن سحب الدثار إلى وجهه وكانت خيوط النور قد بدأت بالتسرب إلى الغرفة وسقط بعضها على وجه زوجته فبدا وجه شهيدة من العصور الخالية عذبها وثنيون برابرة فماتت وهي تباركهم. تذكر قبلة الصباح وتذكر بقية بيت من الشعر:

يا مأفون لو أمتناها لأحييتها بحرارة القبل.

ولكن ما أبعدها الآن عن مجال لمسه وقبله. وتذكر الفجر ولو كان فجر شباط، فالفجر الذي اعتاده وأحبه هو فجر تموز الأرجواني، عندما كان يهرع في قريته نحو الشرق مع أول خيوط النور بصحبة رفاق الطفولة الذين كانوا يشتركون جميعاً في التهام ألوان المشرق. لقد كان يعانق الحياة في تلك اللحظات

فلعله لا تزال في نفسه بقية من الحياة يستطيع أن يخاطبها الفجر. ونهض من فراشه فمسح وجهه بالماء البارد دونما عناية وارتدى ثيابه وغادر البيت بعد أن ألقى على وجه زوجته نظرة أخيرة فقد كان يحتاجها عادة في مثل هذه الأوقات عندما كان يمزقه القلق والسهاد كانت تقف إلى جانبه وتحاول أن تتنبأ بمتاعبه ثم تعد له نقيع البنفسج والبابونج فقد أدركت بفطرتها ما يريح أعصابه المتوترة ولكنها ترقد الآن على شبح خيانته.

نهض هذه المرة واتجه نحو المقهى الشرقي في المدينة. لم يكن الخدم قد استيقظوا بعد ولم يكن الأثاث قد رتب، فتناول كرسياً وجلس عليه ميمماً وجهه نحو المشرق يتأمل السهول وقد انبسطت تحت ناظريه هادئة ساكنة إلا من بعض القنابر تصعد صلاتها نحو الرب، وكان ضوء الفجر يسقط على كل شيء مزيجاً من التبر والأرجوان، والنهر يبدو خيطاً أبيض ولد في الأبعاد الخفية وضاع في البحر، كحكيم ناضج مستسلم لمصيره. كانت نجمة الصباح لا تزال تحرس انسحاب موكب النجوم الكبير وكانت ترتجف من نسمات شباط الباردة تنتظر بقلق شروق الشمس كي تترك لها أمر الكائنات. بدا له العالم في تلك اللحظة منسجماً متفاهماً بلغة مشتركة تنظم كائناته

جميعاً وخيل له أن القنابر تتفاهم فيما بينها وتتفاهم مع النهر والسهل والجبل، وبدت له أشجار الزيتون تتهامس فيما بينها وكأنها تقول: ما أشد جمال الفجر، إننا نتمنى لو لم نكن كائنات فانية رغم عمرنا المديد. وبدا له أن أمواج البحر تسخر من الكل بلغة واضحة إلا له. وقد راوده خوف النهاية مثل الجميع فقد كان شاعراً حساساً، ومصيبة هؤلاء أنهم في أوجه تلذذهم بجمال الوجود يتسرب الجزع من النهاية إلى نفوسهم كخيط أسود يتخلل نسيجاً حريرياً.

إنّها عقوبتهم التي عاقبتهم بها الطبيعة دونما ذنب اقترفوه ولكن لحكمة تتعلق بمصلحة النوع فهؤلاء النهمون الجياع إلى المستحيل من لذاذات الحياة سوف يصبحون كسالى متبطلين إذا ترك لهم الحبل على الغارب ولسوف يهملون واجبات الحياة إهمالاً. إن الغالبية من البشر تكتفي بمقدار قليل من السعادة وتنهض لواجباتها، أما هؤلاء فأطفال مدللون يريدون السعادة صرفاً خالية من المتاعب فكان لا بد للطبيعة ـ المربي الكبير ـ أن تردهم إلى رشدهم بطريقة ما، أن تذر في عيونهم الرماد لكي يغمضوها عن جمالات الوجود وينهضوا ليؤدوا ضريبة النوع القاسية على نفوسهم. إن الرماد هو هذا الشعور بالنهاية، وقد

ملأوا الدنيا ضجيجاً، في الآونة الأخيرة حول هذه النهاية كسرب من الغربان ينعق بجنون أمام لوحة الغروب الجميلة مؤذناً بأن الظلام لا بد أن يشمل كل شيء.

كانت هذه الأفكار تراوده وهو يحب الحياة في تلك الآونة ويبكي لفقدها معاً. كان يعرف نفسه حق المعرفة ويعرف إلى أي زمرة من الناس ينتمي، وتمتم بينه وبين نفسه: سلاماً أيها الأطفال المدللون، يا ملح هذا العالم. وتغلفت عيناه بدموع المحبة والحزن... إنه كثيراً ما يعاني تلك الحالة من الوجد والتي يعجز عن تسميتها، إنها ضرب من التعاطف الصامت مع كل ما في الوجود وميل إلى مشاركة الكائنات حزنها على المصير وشوق إلى معانقة هذا العالم بكل ما فيه من خير وشر، من هموم واهتمامات.

كانت زوجته تفهمه كما قلنا في بداية هذا الكلام وقد ألف بين قلبيهما هذا الفهم. حقاً لم تكن تنتمي إلى زمرة الأطفال المدللين ولكنها كانت من النوع الضروري لهؤلاء التعساء. كانت تنتمي إلى أنموذج الأم التي تستطيع متابعة طفلها في ألعابه ومشاركته في أفراحه الصبيانية، كانت قادرة على أن تتابع زوجها في رحلته نحو الوجد وتستقبله عند عودته منهوكاً كنسر أرهقه التحليق بشراب البنفسج الذي يحمل له هدوء

أعصاب الأجداد الذين استمدوا إيقاعهم النفسي من إيقاع الأرض البطيء فسموا لذلك الجبابرة. كان يشعر أنه يشارك الكائنات في تلك الساعة المبكرة فكلاهما كان حزيناً فرحاً. كلاهما كان يشرب النور، ويبكي لأن النور سينفذ، ولكنه كان بحاجة إلى أن تقول له الكائنات إني أفهم حزنك لأني أعانيه. كانت تقول ذلك فيما بينها، ولكنه لم يفهم لغتها، لقد أصبح غريباً حتى عن الكائنات، عن الطبيعة التي كانت عزاءه في ما مضى. لقد كانت الطبيعة ملاذه الدافئ، عندما كان يرهقه الناس وكان يشعر أنه يفهم لغاتها المتعددة ويحيا حيواتها الكثيرة.. الأرض! لقد علمه أجداده الفلاحون أنها أصلب تربة تحت أقدام المرء وهو يترنح موشكاً على السقوط، وكانونها أشد دفئاً من أي شيء عندما تهاجم الحياة بزمهريرها، وشفاهها أشهى قبلاً عندما يعض الدهر بنابه. الأرض! التي شعر يوماً أنه انحدر منها لا من فوارة الزمن وحن إليها أكثر من حنينه إلى غيب المستقبل. الأرض! التي أحبت أهله وباركته وأرسلت من سنديانها ظلالاً لقبورهم ومن بنفسجها عبيراً لهذه القبور، لم لا تباركه الآن، لم لا تمنح كائناتها قدرة تكليمه. هذه المرة يا للخيانة الفظيعة، لقد تآمرت الأرض مع البشر، من ألف لغة تتسامر بها الكائنات، لا أفهم لغة واحدة.

لو كان لزوجتي أن تكلمني إذن لأرسلت الآن أنظارها مع أنظاري نحو منابع الضوء وأصاخت بإذنها إلى همس الكائنات مع إذني ولالتفتت إلي بين الحين والحين قائلة: أيها الشعراء المجانين إني أفهمكم حقاً، إن الوجود لرائع، لكم أن تهيموا بحبه وأن تبكوا قبل أوان فقده. زوجته! لقد كانت ترجماناً بارعاً يجيد ألف لغة، لقد كانت صلته بالأرض وبالطبيعة، كانت شاهده الوحيد على أنه ليس مجنوناً في محبته للكون وليس مأخوذاً إذ يفهم لغاته المتعددة وليس معتوهاً إذ يبكي لفقده قبل الأوان. كانت تفهم طفلها وتبارك أفراحه وأحزانه غير المعقولة. وخيل له أن الكائنات كفت عن سمرها واتجهت نحوه تتهمه وتنهره هذه المرة وكأنها تقول اذهب وائت بزوجتك. لا نعرفك إلا معها، كان يشعر كأنه طفل دون سن الرشد. دخل عالم الكبار فاستنكره الجميع.. من المسؤول عن هذا الطفل الفضولي؟!

كانت الشمس قد صعدت من وراء الجبل وكان الخدم قد فرغوا من ترتيب أثاث المقهى وغصت المناضد بالناس العاديين الذين جاؤوا لقضاء عطلة الأسبوع. وبدأ يفهم لماذا يأتي الناس معاً إلى الطبيعة ولماذا يحرصون على استقبال الصباح بشكل

جمادات: إن لغات الكون أشد تعقيداً من أن يفك رموزها فرد وحيد. شعر بحاجة إلى قهوة الصباح وهو ينظر إلى القهوة تدار على الزبائن. منذ عامين تقريباً لم يتناول قهوته وحيداً، كان باستمرار مع الزوجة والصديق، صديقه كمال العازب المحترف كما كانوا يلقبونه تندراً، ذلك الذي رافقه مرحلة طويلة من حياته وسايره في وهاد الحياة ونجادها، واشترك معه في تكوين رصيد فكري مشترك لا يمكن إرجاعه إلى أحدهما، وإنما هو ملك للاثنين معاً. لقد تكونت أفكارهما السياسية خلال العمل المشترك في الحزب، وكذلك أفكارهما الأدبية والفلسفية خلال المطالعات التي كانت شبه مشتركة أيضاً، فكان كل منهما يقرأ الكتاب ويهرع إلى صاحبه ليناقشه في أفكاره، بل إن آراءهما في الناس المعاصرين هي آراء مشتركة أيضاً وأذواقهما تكاد تكون واحدة فقد تكونت خلال حياة مشتركة!

كلاهما أحب الأرض حباً لا مزيد عليه وكلاهما عشق أزهار العليق وهي ترسل عبيرها إلى المدى البعيد وقد أحيا معاً ليالي الربيع المقمرة على الساحل حيث يرسل البدر نوراً بارداً مضمخاً بعبير أزهار الليمون. حقاً إن ما أظنه ملكي هو تراث مشترك وقد بدأت الزوجة تشاركني في هذا التراث منذ عامين،

أليست هي التي رافقتني بل رعتني في رحلات الوجد؟ بدأ يشعر بالجوع إذ رأى أطباق الطعام تدار على الزبائن الذين كانت برامجهم تتضمن أن يتناولوا طعام يوم الجمعة في الهواء الطلق وفي قلب الطبيعة حسب تعبيرهم، اشتهى شيئاً مما في الأطباق وخشي أن يسبب إحراجاً للخدم لأن وضعه الحالي يقتضي أن يسرق من أجل أن يأكل. كان لا يزال يحب الناس ويتحلى بأخلاقهم رغم أنه عزل عنهم ودفعته أخلاقه إلى أن يذهب إلى البيت لتناول الطعام هذا اليوم أيضاً. كان هناك دافع آخر يدفعه للذهاب إلى البيت هو زوجته، إنه لا يزال حريصاً على معرفة تطوراتها مع ثقته التامة أنه لا يستطيع أن يفعل من أجلها شيئاً، ولا يستطيع أن يقدم لها أي عون. كل ما يستطيعه هو أن يتألم بقربها دون أن تشعر به أو بألمه.

كانت ظهيرة دافئة رغم أن شباط لم يكن مضى بعد، وقد تعود مذ طفولته أن يلقى الدفء في قلب الشتاء بفضل هذا الشهر العظيم الذي يستطيع أن ينفصل عن مرحلته الزمنية وينقل الناس بشكل سحري إلى قلب الصيف وكأنه قطعة من تموز، إن شباط وحده هو القادر على هذه المعجزة، على التنكر لحتمية الفصول والانفصال عن مجرى الزمن، لكي يبدو فجأة وكأنه

قلب نظام الطبيعة. وقد لذ الأمر لصاحبنا فهو شاعر حزين دوماً لأن الأشياء في هذا العالم ليست على ما ينبغي أن تكون، إنه نظام غير ملائم لم يصنع من أجل البشر، فما أجمل تحطيمه وشباط يقوم بهذه العملية فيمزق النظام القاسي ولذلك كان شهراً قريباً إلى نفوس الشعراء. وشعر أنه اكتشف فكرة جميلة تستحق أن تنقل إلى زوجته فقد اعتاد منذ عامين أن ينقل إليها أفكاره الفنية وملاحظاته حول الناس والكتب، كانت جمهوره الطيب الحبيب الذي يستقبل إبداعه بروح نبيلة، كانت وحدها القادرة على أن تنبش عيوب القصة وتحذفها كأنها لم تكن، على العكس من الجمهور الحقيقي الذي يحصي العثرات... حقاً ما أحوج الإنسان إلى الغفران ولذلك فما أحوجه إلى الحب. دخل البيت فرأى صديقه كمال يتبادل مع زوجته الآراء حول اختفائه ويعرضان شتى التأويلات والتفسيرات، قال كمال: ظننت إنه عاد إلى البيت بعد غياب يوم لبعض شؤونه التي لا يحب أن يشغلك بها لأنه كما عهدناه يحب أن يستقل بالمتاعب أما الآن فلا اكتمك إني قلق لغيابه وأرجو ألا تكون شطحة من شطحاته فهو فنان كما تعلمين. على أن فكرة واحدة أحب أن أستبعدها وهي أن تكوني سبب اختفائه. إنه لم يكرهك يوماً كما أعلم ـ

وأنا أقرب الناس إليه ـ وقد كنت دوماً بديلاً طيباً في نظره عن كل سعادة فقدها في هذه الحياة. لم يكن منسجماً مع عمله ـ ليس بسبب العجز، فهو بارع ـ ولكن لأنه يحمل شعوراً برسالة أعده القدر من أجلها. إنك تعرفين هذا الرجل، إنه لم يتساهل أبداً في قضية الكتابة ولم يقبل بينه وبين نفسه أن يتخلى عن هذه القضية، لقد كان ككل المتفوقين يعاني صراعاً دائماً بين المهنة والرسالة والإنسان العادي يوفق بينهما وكنت أنت عزاءه الوحيد في هذا الصراع.

بدا على الزوجة الهدوء بعد خطاب الصديق. واستراحت قليلاً إلى أنها كانت عزاء زوجها في صراعه فقد كانت من اللواتي يعتبرن الزواج رسالة قائمة بذاتها ـ كما أسلفنا ـ يمكن أن تكرس لها الحياة بكاملها. كان يبدو على الصديق أنه شديد الميل إلى أن يقدم عوناً ما كما في المرة السابقة وكانت الزوجة تدرك فيه ذلك بحدسها، حدس المرأة المشتق من حدس الحياة ـ وتطمئن إليه من أجل ذلك فلا يبدو عليها أنها أمام غريب ولكنها طرحت جميع شكوكها مرة واحدة أمام كمال وتركت لدموعها أن تنحدر بحرية على وجهها الذي بدا الآن أصفر شاحباً تمزق وحدته عروق زرق هرب منها دم الحياة..

طالما سخر الكتاب من دموع المرأة وشبهوها بدموع التماسيح ـ وقد يكون الأمر كذلك أحياناً ـ ولكن ما قولهم بدموعها عندما تبكي بلا أمل وقد سحقتها الحياة إلى الحد الذي لا رجاء بعده. عندما تفقد المرأة الحماية، حماية الزوج وهو آخر مرفأ لها لسفينة الحياة، حماية الزوج الذي لا يعوض، لا حماية العشيق الثري فهذا متوفر ما دام المجتمع يغص بالأنذال. عند ذلك تستحق دموعها أن تمسح بأسخى الأيدي وأملأها بالحنان.

كانت دموع عفراء آنذاك هي دموع ربان بارع يجيد تصريف سفينته في المحيطات ولكن عاصفة لئيمة هبت من المجهول وألحت على السفينة حتى النفس الأخير. إن الإرادة الجبارة لا تبكي إلا في مثل هذه الحالة: بعد أن نكون قد حسبنا حساب كل شيء وتلافينا كل مفاجأة تطل من الغيب صدفة لم نتوقعها ولا يمكن فهمها ولا ردها عند ذلك يترجل الكمي ويجثوا على ركبتيه ويستسلم لبكاء الجبابرة ومغفور لهم هذا البكاء.

كان الصديق يدرك الموقف ويتعاطف صامتاً مع دموع عفراء وكان هو أيضاً بحاجة إلى الدموع فقد كان يعرف التراث المشترك الذي كونه مع فريد.

لم يكن حاقداً على فريد رغم كل شيء فقد رافقه طيلة حياته التي لم تعرف السلام الداخلي يوماً، فقد كان من الناس الذين مزقت الحياة طبيعتهم الداخلية لكي يتلألأوا في الخارج لينيروا دروب الناس العاديين فتبنوا مأساتهم وأحبوها بشكل غير معقول وغير مبرر واندفعوا وراء طبيعتهم الخاصة كمجاذيب استدرجتهم جنية ساحرة إلى الغابات البكر.

أحتاج فريد إلى الكلام في تلك اللحظة أكثر من أية لحظة أخرى في حياته، احتاج إلى النداء.. هذه المرة فقط يا باسط الصحراء، إلا جسراً يا صاحب الأوقيانوس العظيم، إلا جسراً من الكلمة ينتصب بيني وبين من أحب، إنهم الآن في أوج لوعتي، لكم تبدو الكلمة ثمينة عند الحزن... خرج كمال مودعاً بعد أن بذل كل ما في طاقته لإدخال العزاء على قلب عفراء التي لم تستطع أن تقوم بالمجاملة العادية فترافق كمال إلى باب الدار، ولكنها نهضت ومدت يداً مسترخية شبيهة بيد المسيح في لوحة النزول عن الصليب. وظلت واقفة في مكانها مثقلة بوطأة فاجعة أسطورية. لم يكن فريد قد ذاق طعاماً منذ البارحة ظهراً حيث التهم قطعة خبز وجبن. وقد تعاون الجوع مع النوم المتشنج والألم المحير على هدمه فتداعى في المطبخ على مقعد خشبي كسنديانة

تنازلت عن جبروتها وأخذ يقضم بعض الأطعمة الجافة كفأر هزيل.

كانت الساعة قد أوشكت على الثالثة ظهراً. وفي مثل هذا الوقت كان يرتاح في قيلولة قصيرة يقضيها نائماً أو في المطالعة أو في حديث مع زوجته، ولكنه لا يستطيع الآن شيئاً من ذلك فهو لا يستطيع أن ينام لأنه وصل إلى المرحلة من الإرهاق التي لا تسمح حتى بالنوم، وهو لا يستطيع أن يقرأ. أما الحديث مع زوجته.. خطرت له فكرة السينما، عندما كان طالباً كان يهرع إلى السينما كلما مسه الإرهاق أو الضجر وكانت حكمته في ذلك مشهورة.. مهما يكن الفيلم تافهاً فإن المرء ينسى نفسه ثلاث ساعات متوالية ولا ريب إنه الآن في حاجة إلى أن ينسى نفسه أكثر من أي وقت مضى، نفسه التي أصبحت عالة عليه كجاز معطل وميت لا يعرف كيف يتصرف به. ونهض من المطبخ واتجه نحو باب الدار دون أن يجرؤ على إلقاء نظرة على زوجته واتجه إلى السينما. كان الفيلم قديماً: قصة الحذاء الأحمر.

والفيلم عبارة عن أسطورة حول حذاء أحمر يبيعه الشيطان، من ارتداه لا يستطيع أن يكف عن الرقص، وتبدو الراقصة فرحة أول الأمر، ولكنها ترهق ولا تستطيع أن تتوقف ثم تتبخر

إلى إعلانات وقصاصات صحف. ومغزى الفيلم هو الصراع بين الفن والحياة ككل القصص التي تدور حول هذا الموضوع: من دخل محراب الفن لا يستطيع أن يرجع إلى الحياة مرة أخرى رغم أن كل فنان يشتهي العودة فالدخول سهل يبدأ بنوع من الفضول الطفولي على طريقة نيتشه عندما أحب أن يسخر من الشيطان ـ كما يقول زفايج ـ ولكن الشيطان تابع إلى النهاية فسخر منه واستدرجه إلى عالمه وعزله عن الحياة.. انتهى عرض الفيلم السادسة مساء فخرج فريد من السينما وزج بنفسه بين الناس حريصاً على أن يحصل على أكبر كمية من الدفء الإنساني. وكانت الجموع تتجه نحو البحر كما هي عادة الناس دوماً الذين مهما بلغت بهم الكثافة فلا بد أن يعانوا بعض الانجذاب الروحي بعد كل اطلاع على أحد الآثار الفنية. كان الناس واجمين وهذا دليل على نجاح الدراما التي تزعزع التربة الصلبة، قشرة شخصيتنا التي كونتها ظروف الحياة والمجتمع لتبعث البركان الكامن في أعماقنا والذي دفناه مع الطفولة. ولكن الحياة ـ الوافرة الحكمة والقسوة ـ تسرع فترأب الصدع وتربت على كتف أبنائها وتدفعهم نحو حياتهم الاعتيادية من جديد. أما بالنسبة لفريد ـ وهو ينتمي كما قلنا إلى زمرة الأطفال المدللين ـ

فلم يكن الأمر هيناً، لقد كانت عملية التذوق الفني ؟؟ هزة وجدانية عميقة تبعده عن الحياة حيناً وتجعله فجأة ينكر ذاته العادية. مثل هؤلاء نستطيع أن نقول إنّ الطفل لم يمت في نفوسهم وإنما لا يزالون يحتفظون بتلك النظرة الطفولية إلى الوجود فيبدو غريباً ومدهشاً، هذا إذا نظرنا إلى الأمر من زاويتهم الخاصة وإذا عبرنا بلغة المجتمع قلنا إنهم لم يبلغوا النضج بعد فهم لا زالوا صغاراً عالة على الحياة، أعصابهم مريضة لا تكف عن الاهتزاز لدى أول تنبيه...

خرج فريد بحالة وجد إذن، ماذا دفن في ذاته؟ أي فنان عظيم كان سيخرج منه لو لم يقم بعملية التواطؤ التي قام بها من أجل أن يحتفظ بمزايا الحياة البرجوازية.. في مثل هذه الحالات كانت زوجته تسرع إليه حاملة العزاء وشراب البنفسج الممزوج بالبابونج، في مثل تلك اللحظة التي يبدو فيها صغيراً في عين ذاته،

كانت زوجته ــ شاهد إنسانيته ــ ترفعه بنظرتها إلى ملكوته وتبدد من زوايا نفسه الشعور بالصغار. وخطرت له فكرة سرعان ما تمركزت في بؤرة شعوره: إن ما يعانيه من عزلة عن البشر إنما هو من فعل شيطان الفن، إنه شيطان شديد

الانتقام، يعذب بقسوة كل من يحاول أن يسخر منه. لقد خان رسالته وقد عذب من أجل ذلك، خانها من أجل الحياة مع الآخرين، من أجل أن يصبح إنساناً عادياً يملأ جميع الأطر التي يملؤها الناس: الزواج والصداقة والمهنة والحياة العادية. ولم يقنع بذلك بل أراد أن يدخل ملكوت الفن دون أن يلتزم بشيء من تبعاته، أراد أن يدخل هاوياً والهواية في الفن كالغواية في الدين: جريمة لا تغتفر ولا يمكن لشيطان الفن الموكل بحراسة ملكوته أن يغفر هذه الجريمة ولذا فقد عاقب صاحبنا أقسى عقوبة ممكنة فقذفه في الخلاء الموحش يتلهف على رؤية الناس الذين شغل بهم عن رسالته. لقد برر الأمر في الماضي بعالم الضرورة المحتومة التي تدفع أبناء الحياة إلى أن يتنازلوا عن مشاغلهم العليا في سبيل خبزهم اليومي لأن لهم جسداً، حاجاته لا تحتمل الأرجاء وهم قد ضاعفوا هذه الحاجات التي هي ضرورات تقتضيهم أن يحافظوا على حد أدنى من الثياب والأثاث وغير ذلك. إن الحاجات الأولية أمر سهل يمكن تأمينه وهي غير قادرة وحدها على أن تجر الناس إلى العبودية لولا هذه الإضافات الكثيرة التي تتراكم على مر العصور حتى يصبح مجموع الحاجات البشرية عبئاً لا يمكن احتماله.

إن الدعوة إلى البساطة التي بدأها بعض المفكرين الذين تنبأوا بأن مجتمع الغد سيصير إليها حتماً، هذه الدعوة عميقة الجذور في النفس الإنسانية ولابد أن ينتبه إليها الإنسان حتماً فيكف الناس عن أن يتنافسوا في الأزياء واختراع وسائل الترف ويسود نوع من التجانس في الأمور المادية، وإذا عبرنا بلغة بيولوجية فلسوف يطلب الناس من اختراعاتهم أن تكون بسيطة في بنيتها متعددة في وظائفها وهم قد بدأوا ذلك فعلاً، ولسوف ينصرف الناس إلى الترف الروحي ــ إذا صح التعبير ــ مثل تلوين الانفعال وتنويع اللذة الروحية، سوف يبحث الناس عن النشوة الروحية بدل النشوة البيولوجية. وقد بدأ هذا الأمر عند بعض الشعوب التي أدركت فن الحياة فحرصت على أن يكون طعامها مفيداً ولو كان خلواً من اللذة على العكس من الشعوب المتخلفة التي تريد طعاماً لذيذاً ليس خلواً من الفائدة فحسب ولكنه مضر في نتائجه لأجهزة الجسم ذلك لأن هذه الشعوب لم تكتشف بعد النشوة الروحية الفنية مثلاً سواء أكانت نشوة إبداع أم نشوة تذوق وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب لوجدنا في أزيائها غلبة البنية على الوظيفة فهم يثقلون عواتقهم وأوساطهم بأنواع من اللباس لا تفيد إلا مجرد إعلان عن ثروة صاحبها

ومكانته الاجتماعية، فلا مجال لإعلان التفوق عند هؤلاء سوى هذا المجال ولسوف يأتي اليوم الذي يدرك فيه هؤلاء ــ على الأصح أحفادهم ـ تفاهة الأمر ويبحثون عن مجال آخر للتفوق.

إن صاحب الرسالة هو من اكتشف هذا الأمر فعاش بسيطاً محتفظاً بحريته كسقراط لينفقها في المجالات العليا، إن فن الحياة يقوم على تضييق رقعة الضرورة وتقنين الحاجة والنزول إليها إلى أدنى حد ممكن لكي يتسع على حسابها المجال الروحي وإلا فكيف يستطيع الإنسان أن ينصرف إلى البطولة، وهي القاسم المشترك لكل الرسالات، وحاجته المادية على هذا النحو من التضخم الذي ينوء بحمله ذلك لأن هذه الحاجات تصبح أفيوناً لصاحبها قد يتخلى عن رسالته من أجل الحصول عليه، والثائر الحق عليه، أن يسعى إلى التخلّص من حاجاته المتضخمة أولاً لكي يتفرغ لرسالته.

إنه لم يعد الآن بحاجة إلى رياضة قاسية لكي يتحرر من حاجاته الكمالية فلن يطالبه الناس بها بعد اليوم لأنهم لا يرونه وإذا كان في الماضي ضعيفاً فلم يحاول التحرر من هذه الحاجات فهو قد تحرر منها اليوم رغم أنفه.

حقاً إن الحياة وافرة الحكمة، إنها حكيمة في حمل أبنائها على دخولها والخروج منها بنفس الدرجة من البراعة، لقد

تعبت الطبيعة في إعدادي ولهذا لم تضيعني ــ هكذا خاطب نفسه ــ إنني مواطن في الجانب الآخر من الحياة وقد استردني اليوم وطني الحبيب، مملكة الفن، وها أنا ألبي دعوته.

يا نعم ما حدث فقد تحررت من حاجات كثيرة ولن أحتاج بعد اليوم إلى المحافظة على مظهر معين وسأكتفي من اللباس بما يرد عوارض الفصول دونما انتباه إلى نوعه.

وصل البيت فوجد صديقه وزوجته يحاولان من جديد إيجاد تفسير لغيابه. كانت الزوجة هذه المرة أشد قلقاً من المرات السابقة وكان في عينيها لون من الاستجداء الصامت للنبل البشري الذي كان متجسداً في تلك اللحظة في عيني كمال الذي كان يعرض الخدمات من أي نوع، وحقاً فقد كان وضع عفراء محرجاً فهي على وشك أن تصبح أماً وعليها أن تدير بيتاً وحياة طفل بلا معين، لقد كانت تعيش مع زوجها على دخل محدود لم يدخرا منه شيئاً وكان الدخل الإضافي الذي يأتي عن طريق الفن ينفق في وقته في رحلات أو ما شابه ذلك فقد كان صاحبنا يؤمن مع زوجته بأنه سيعيش الحياة ــ الفرصة النادرة ــ مرة واحدة، ولهذا فقد كانا يعتصران أيامهما اعتصاراً ويبتزان من الأيام كل ما تسمح به من متع. ولم يكن ينغص عيشه سوى

ذلك الوهم الذي أصبح ينظر إليه نظرته إلى داء خبيث تمكن منه ونعني هواية الفن.

إن أشد الناس عذاباً هم الذين توزعوا بين حب الحياة والطموح الذي يقتضي التضحية بالحاضر في سبيل المستقبل ــ وقد كان فريد من هؤلاء فعاش ممزقاً.

قال الصديق: لا يزال غيابه معقولاً لأن غياب عطلة الأسبوع مبرر ببعض المشاغل التي لا يحب أن يشارك الناس بها وغداً سيبدو الأمر أشد وضوحاً.

ـ ولكن يا كمال لم يسبق له مثل هذا التصرف فقد كان يخبرني عند خروجه ولو لساعة واحدة والإنسان لا يتغيب بمثل هذه السرعة إلا تحت إلحاح طارئ عنيف.

ـ هل تقصدين أنه استيقظ البارحة وبه مس من جنون؟

ــ لست أدري وإني لأرجو أن يكون قد خرج سليماً سوياً متخلياً عني وعن الجنين من أن يكون قد تعرض لأي نوع من المرض، إنني أريد سعادته ولو كان بعيداً عني.

شعر كمال من الإشارة إلى الجنين أنها بدأت تخشى المستقبل، تخشى الفاقة والعوز فأسرع بالقول بشهامة: ما أرجوه يا عفراء أن تعتمدي علي في كل شيء.

لم تستطع عفراء أن تشكره أو تخفي قلقها، كان الحوار يجري بنبل عجيب على مستوى القصص فقد كانت عفراء لا تزال تحب فريد وتغفر له وكان كمال يتوسل إليها أن تكلفه ببعض المهام.

شعر فريد أنه أخطأ بتقديراته ورجع من جديد إلى جحوده بالفن فقد جذبته الحياة إليها من جديد ولكنها جذبته هذه المرة بحس أخلاقي بريء من أي ضعف فقد شعر بمسؤليته نحو أسرته، زوجته، وجنينها، وشعر أن عليه أن يقوم بأي شيء نحوهما، ولكنه بنفس الوقت لا يستطيع أن يقوم بأي عمل فهو شخص لا مرئي لا يستطيع التعامل مع الناس. السرقة إذن. السرقة إذن. لقد نفر من هذه الكلمة منذ البارحة ورفض أن يقوم بهذا العمل ولو على مستوى بسيط جداً وهو سرقة رغيف خبز أو فنجان قهوة في المقهى.

خرج صديقه مودعاً مكرراً بذلك خدماته بسخاء وشهامة وخرجت عفراء لوداعه هذه المرة وعندما رجعت إلى الغرفة كانت مسحة اطمئنان قد زرعها الصديق تهدئ روعها وتعيد إلى وجهها بعض الانسجام الذي فقده.

شب في نفس فريد في تلك اللحظة صراع من نوع جديد هو الصراع بين نوعين من الأخلاق: الأخلاق الاجتماعية التي ترتكز على قيم موضوعية ثابتة، سارية على الناس جميعاً دون اعتبار للحالات الخاصة وبين أخلاق الرحمة أو المحبة التي ترتكز على التعاطف الوجداني أو إحساسنا بمأساة الآخر الضمنية واندفاعنا نحو هذا الآخر متنكرين لكل القيم والاعتبارات الأخرى.

وكان كل نوع منهما يهدم الآخر وينفيه فإذا ما استجاب لأخلاق المحبة فعليه أن يسرق من أجل أسرته فيدمر الأخلاق الاجتماعية والعكس بالعكس. إنه ليس صراعاً بين العاطفة والواجب كما صوره القدماء فلا يقل الإخلاص للآخر في أخلاقيته عن الإخلاص للقانون العام وليس تعريف الأخلاق بأنها القيم الموضوعية بأشد قوة من تعريفها بأنها الشعور بالآخر. أليس الإنسان هو المرجع الأول والأخير في الأمر؟

ولم يطل الصراع كثيراً فهاهنا حالة فردية عيانية وهناك مبدأ مجرد حفظناه بدافع التكرار وهو مبدأ نسبي كسائر المبادئ يختلف باختلاف الزمان والمكان وهناك فئة من الاقتصاديين تصرح ببطلانه في نفس هذا المجتمع فتعتبر أن التوزيع الحاضر فاسد ولا يجوز أن نرعى له حرمة، والذي رجح

كفة الصراع أنه فنان يبرر لنفسه أشياء كثيرة في سبيل فنه والفنان ــ كما يقول برناردشو ــ يفضل أن تعمل أمه وهي في السبعين على أن يقوم بعمل لا يخدم فنه وها هي الحياة قد أتاحت له الفرصة لأن يتفرغ لفنه ويقوم بواجبه نحو أسرته في وقت واحد وبذلك ينحل الصراع القديم الذي مزقه.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلاً وشعر فريد بحاجة عميقة إلى النوم وبدا أنه وجد مخرجاً.

عادت به أحلامه أثناء الليل إلى ندوات الشعر التي كان يعقدها مع رفاقه في المدرسة الثانوية وكيف كان متفوقاً يومذاك.

ثم استيقظ في صباح اليوم التالي ــ السبت مرحاً نشيطاً. لقد استطاع أن ينام نوماً عميقاً لأول مرة منذ يومين فقد أتاحت له الفكرة التي ذرعها في نفسه مساء الأمس أن يتخلص من الصراع الداخلي والتمزق اللذين عاناهما طيلة حياته. سوف يعيل أسرته دون أن تستهلكه الحياة اليومية ليتفرغ بعد ذلك لرسالته التي لم يستطع طيلة هذه الأعوام أن يتنكر لها مما يؤذن بتأصل جذورها في نفسه وبارتباطه العضوي بها.

استيقظ على الفكرة السارة التي غرسها في نفسه عند المساء، أن الحدث السار الذي اعتبره محنة أول الأمر أو عقوبة من الشيطان قد أصبح نعمة كبرى، لقد أتيح له لأول مرة أن يتخلص من الصراع وأن يتمكن من الوصول إلى الهدف الذي شغله طيلة حياته: أن يجعل حياته باتجاه قضيته وأن يكون هرماً مقلوباً ذروته تمس الأرض مساً رفيقاً وقاعدته تتمدد نحو عالم الروح والرؤية، لقد استطاع أن يضيق رقعة الضرورة وأن يتخلص من مستنقع الحياة اليومية ليخلص لنفسه.. كان في نشوة وكانت هذه الأفكار قد غسلت نفسه من عذابها القديم، نهض من فراشه وغسل وجهه على عجل وارتدى ثيابه وخرج إلى مقهى البحر، كان يشعر أنه عاد ذلك الطالب الثانوي الذي كان حراً من مسؤوليات الحياة أن يمضي في أي اتجاه.

كان لديه مشروع قصة أهمله زمناً بسبب التردد المرير الذي كان يعانيه، فقد كان يريد لقصته أن تكون باللغة حد الروعة في تعبيرها وقوتها، كان يكره القصص (المصنوعة) على حد تعبيره التي يبدو فيها الجهد وتفوح من بين سطورها رائحة عرق الكاتب وجهده الفكري وكان تبعاً لذلك يفرق بين المهارة والعبقرية فالمهارة هي القدرة على صنع شيء يمكن أن

يحاكي، أما العبقرية فهي إبداع آثار فريدة لا تتكرر وكان يرى أن الآثار الرائعة التي تدل على عبقرية حقة هي الآثار التي كتبها أصحابها في حال من النشوة، لا النشوة المصطنعة التي تحدثها العقاقير والتجارب المفتعلة كنشوة الكتاب المحدثين مثلاً الذين يستعينون على الإبداع بالخمرة والإغراق في شهوة الحس، إنها النشوة المدمرة التي تسحق الشعور وترجعه منكسراً مهيضاً أمام العالم المحيط به، إنها نشوة الفرار، فرار من عالم غير ملائم، إنها خلاص مؤقت سنعود بعده إلى العالم منكسرين، إن هذه النشوة هي التي أنتجت الأدب الأسود الذي يدين حضارتنا التي تسحق بلا رحمة وترهق الشعور وتحول بينه وبين أن يجد سبيلاً حقاً. أما النشوة التي كان يبحث عنها صاحبنا فلم تكن نشوة الفرار أبداً ولذا فلم يستعن بالعقاقير ولم يمعن في شهوات الحس؟ كان ينشد النشوة الظافرة، النشوة التي أصبح صاحبها خارج العالم مطلقاً من كل قيد غير متوقف على شرط، نشوة الاستغناء الكامل، التي ظفر بها بعض المتصوفة والفنانين الذين غادروا عالم النقص والشر وخرجوا من مستنقع الضرورة، إن هذه النشوة هي مطمح الإنسان على الأرض وهي ملكوته الذي يحن إليه منذ أن زرعت رجلاه في تربة الألم وكلل رأسه بضباب الشك والخوف.

ومن أجل أن يصل إلى هذه النشوة فقد كان عليه أن يضيق رقعة الضرورة وأن يقنن رغباته ويروض شهواته على أن تقنع بالقليل ولكنه كان يعجز عن ذلك بسبب الحياة البرجوازية التي استدرته بمكر عجيب وجرته إلى العبودية. ولكنه طيلة هذه الحياة لم ينس ملكوته، لم ينس أنه هبط من السماء وأنه من طينة مغايرة لعالم الطين وكان هذا الشعور وحده يبعث النشوة في نفسه ولكن سرعان ما يبدد هذه النشوة شعور آخر بأنه عاجز عن بلوغ هذه الملكوت وأنه النسر الذي اضطر إلى الأبد إلى أن يزحف بين العاديين الذين لم يعرفوا نشوة الطيران ولذا فلم يعانوا عذاب الزحف أما هو فما أضيع حياته.

لم يستطع بسبب هذا الشعور أن يرتاح إلى سهولة الحياة البرجوازية ومتعتها ولم يستطع أبداً أن يفهم قاموسها المعقد فكان على الدوام غريباً شارداً لا يلم بما يقال أو بما يحدث، ولذا فقد كان فريسة سهلة للأوغاد الذين حولوا فروسية الغاب إلى صراع دنيء سلاحه النكتة الدنيئة الغادرة، ولذا فقد أخذ ينسحب من المجتمع شيئاً فشيئاً ووصل إلى مرحلة أصبحت فيها زوجته مجتمعه الوحيد فقد كان يشبهها بالمرج الفسيح الذي يتمدد فيه المرء دون مسؤولية كان بحاجة إلى الأمان وقد أتاحت له زوجته ذلك: أعطته الولاء فخلصته من الحذر فاستراح إليها

وحدها وكاد يفقد الحس الاجتماعي تماماً. والآن لقد خلصه شيطانه من الضياع وهاهو يجد النشوة التي بحث عنها طويلاً. كان يجلس في المقهى وعيناه تطوفان بالبحر الساكن كمرآة صقيلة، في ذلك الصباح المنعش وموسيقى راقصة تنبعث من ركن المقهى، كان في تلك اللحظة خارج العالم الذي جره إلى العبودية وكان يعانق البحر الذي تردد في أحلامه كرمز للحرية: محال أن تحب الحرية دون أن تحب البحر. أواه ياللنشوة، إنها أروع من أن تكون واقعاً وحقيقة، وتحولت النشوة إلى وجد واغتسلت عيناه بدموع الفرح، وبدأ وجهه يتوهج كتلك الجمرة المتقدة التي حُكِيَ أن وجه الحلاج كان يحاكيها أحياناً، لقد تخلص من الشعور بالتفاهة وهو شعور الذين لا تبررهم الحياة العادية وتحول بينهم وبين العلو عليها، أنه الآن شاعر في لحظة الإبداع.

ومد يده إلى جيبه فأخرج القلم وفتح الدفتر على صفحة خط في أعلاها بضعة سطور يبدو عليها القدم وشرع في الكتابة...

ولكنه شعر بالجهد وهو شعور كريه، سيء الدلالة بالنسبة إليه فهو تعبير عن النضوب النفسي وشح العبقرية واستمر في الكتابة رغم هذا الشعور فلا بد من البداية الفاترة وهو يعرف

ككاتب أن الشعور بالرضا لا يأتي منذ البداية ولكنه يتوج الصفحات الأخيرة فقط وعلى الكاتب إذن أن يبدأ متردداً وأن يدفع عنه وسواس الكمال الذي يرهق جميع الممتازين الذين لا يعرفون الرضا والذين ينجزون آثارهم دون أن يحصلوا على القناعة التامة بجودتها ولكنهم مع ذلك يستمرون في الخلق إذ لابد لهم من الخلق ولو كان الأثر ناقصاً. واستمر في الكتابة، واستمر الشعور بالجهد وبأن الأثر أبعد ما يكون عن الجودة وأبعد ما يبعث على الرضا، وأنجز ما يقرب من ست صفحات بدت له رديئة جداً وبدا فيها بطل القصة يتحرك بشكل مصطنع كدمية ميكانيكية تحركها أزرار آلية. وأدرك صاحبنا أن بطله يتحرك بأزرار عقلية وأنه أبعد ما يكون عن الحياة والعفوية وشعر برداءة الأسلوب فقد بدت العبارات كأنها من كتابة غريب عن اللغة لم يمتلك بعد ناصية التعبير فيها ولم يألف ألفاظها ولم يسلس له قيادها فقد كان أسلوباً متقطع الأنفاس حافلاً بالزوايا الحادة مرتبكاً مربكاً، كانت الكلمات معلقة من شعرها كما يقولون، فقد كان يشعر بحس الفنان الأصيل أن معانيه لم تستوف حقها من التعبير وأن المادة (اللغة) غير مطاوعة.

كان يبحث عن الشفافية والأثيرية، عن المرحلة من الإبداع التي ننسى فيها المادة كما ينسينا تمثال فينوس أنه من رخام وكما تنسينا الكتابة البارعة أنها مكتوبة بلغة وكما تنسينا اللوحة أنها ألوان ممزوجة على قماش. إن كل فنان يطمح إلى ذلك: أن تنتصر الصورة على المادة، أن تتغلب الإرادة على الطبيعة كالوجه الذي ينتصر فيه التعبير عن الإرادة وإشعاع الذكاء ونبل التصميم على كثافة اللحم والدم.

كان صاحبنا ينشد ذلك، أن ينسي قارئه اللغة التي يستعينها ويقدم الفكرة بكامل جلائها وحرارتها. لقد استطاع ذلك يوماً قبل أن يشعر بالتردي والتهافت فأنجز آثاراً يعتز بها بين الناس ويخجل منها مع نفسه وهاهو الآني يتوكأ على الألفاظ والمقاطع ككسيح فقد ساقيه.

وتوقف عن الكتابة عند ذلك ورجع يقرأ ما أنجز فبدا له أن اللغة لا تزال قوية ولكنها بلا روح كرجل نضبت حيويتهُ ودفعةُ الحياة عنده فتهافت على مستوى العادات يمارسها على مهل، على نحو آلي كريه. كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة ظهراً فطوى دفتره بعصبية ونهض إلى مطعم المقهى فأحضر طبقاً من السمك ووضعه على منضدة وجلس إليه يأكل وشعور التفاهة

يخيم عليه ويجعله واحداً من رواد المقهى الذين عبر عنهم يوماً بأنهم يعيشون على مستوى النخاع الشوكي.

كان يفكر في زوجته وفي الجنين الذي تحمله ولم يشعر بحاجة إلى أن يعاني المشكلة الخلقية القديمة التي دارت في ذهنه البارحة: إنه سيسرق من أجلها كما سرق طعامه وتبرر الأمر لديه بسهولة: إنه فنان متفرغ والمجتمع لن يرهق بطفيلي واحد فهو ينوء بعبء طبقة كاملة من الطفيليين الذين يسرقون بالجملة وببراعة تامة ثم أنه مرغم على هذا الوضع وهو محمول على اختيارين لا ثالث لهما: أن يموت جوعاً مع أسرته، أو يسرق، وما دام مفيداً للمجتمع وما دامت زوجته لم تأت أمراً تستحق أن تعاقب عليه فلا بد من تقديم العون لها بأي وسيلة كانت.

ونهض إلى المغسلة فغسل يديه وفمه ومضى إلى درج المحاسب في المقهى ففتحه وأخرج منه حزمة من الأوراق النقدية دسها في جيبه بثقة تامة من أن أحداً لن يراه وهي ميزة يتمناها الكثيرون من الكسالى: أن يصبحوا أفراداً غير مرئيين لكي ينعموا بالفراغ الدائم ويعيشوا عالة على المجتمع... إنه الآن يتمتع بوضع يحسد عليه وشعر بالخزي لهذا الشعور بالارتياح لوضعه، فانتبه إلى نفسه فجأة كسارق ربت الشرطي على كتفه. وأخذ

يعيد في نفسه ألوان العذاب التي عاناها من عزلته عن البشر وآلامه وآلام زوجته في اليوم الأول، ثم أنه لم يختر هذا الوضع ولكنه دفع إليه بقسوة لا مثيل لها وإن كان الآن لا يشعر بالقسوة البالغة فهو وضع يمكن التلاؤم معه والعيش في ظله لولا الحاجة إلى الآخرين وإلى تبادل المشاع معهم. ولكنه فنان والفنان يشتهي الوحدة دوماً ويختارها بنفسه وهاهو الآن قد دفع إلى الوحدة دفعاً فلا أقل من أن يتبناها.

وصل البيت فوجد زوجته لا تزال تحمل ذلك الحزن العميق الذي تركها عليه في الليلة السابقة وقد انضاف إليه خوف ناشئ عن فقدان الحماية، فقد أيقنت أن زوجها لن يعود إليها مهما تكن مسؤوليته في هذا الغياب. كانت تتجول في البيت كمريض مصاب بالخوف من الفراغ، والحق أن الشعور بالفراغ، بفقدان السند هو الذي كان يعذبها، لقد كان عذابها غريباً فقد كانت لا تزال جميلة وتستطيع أن تبدأ الحياة مع إنسان آخر ولكنها كانت من نموذج نادر يؤمن أن اللقاء الإنساني لا يتكرر وأن الناس كعناصر الكيمياء يصطفي بعضها بعضاً ولا يقبل العنصر إلا نصفه المكمل وكانت تنظر إلى زوجها على أنه نصفها المكمل وتعتبر أن القدر قد اختارها لتعاونه على تأدية

رسالته فقد كانت تؤمن برسالة زوجها ولذلك فقد تركتها الكارثة نصف مشلولة، امرأة غير مهمة لا قضية لها وكان هذا الشعور يميتها فلم تستطع أن تقنع يوماً بالحياة العادية مع إنسان عادي ولذلك بدت لها حياتها بعد الكارثة تافهة عديمة القيمة على العكس من زوجها الذي خيل إليه أن شيطان الفن قد أنقذه من تفاهة الحياة البرجوازية ليخلص لرسالته. كانت منسحقة يعذبها شعوران: الشعور بفقدان السند من جهة والشعور بأنها تحولت إلى امرأة عادية لا قضية لها من جهة أخرى.

كانت من نموذج نادر عديم المرونة شديد الصلابة تعيش بالضرورة في عالم العلاقات العابرة، عالم هازل لا قضية له.

ألقى بالمبلغ على المنضدة بحيث تراه الزوجة وتمدد في سريره يستريح بعد الغداء فقد كان قلقاً وكانت فرحة الصباح توشك أن تتبخر فهو لم يرض عن الصفحات الست التي كتبها وكانت بالنسبة إليه مجرد إذكاء لحماس الإبداع لا قيمة لها في ذاتها على الإطلاق ولابد من إعادة كتابتها عندما ينجز القصة ولكنه برر الفشل لنفسه بأنه منقطع عن الكتابة منذ زمن وأن أحداث اليومين السابقين قد مزقت أعصابه وبددت طاقته. إنه (ابن الحرفة) وهو يعرف أكثر من الجميع حاجة هذه المهنة

الشاقة، مهنة الكتابة إلى الهدوء النفسي والعصبي وإلى توفر الطاقة، ولذلك فلا بأس أن يتعثر اليوم وأن يهبط عن مستوى الجودة التامة فهو سيعيد الكرة مساء بعد أن تكون أعصابه قد أصبحت في رهافة الفولاذ ومرونته لكي يتابع تثنيات الفكرة ويلتقط جميع أجزاء الصورة.

كان كاتباً ذاتياً مادته وأداته أعصابه ولذلك فقد كان في أشد الحاجة إلى الانسجام الداخلي الذي حرمه في الماضي وفقد بسببه القدرة على الإبداع وهاهو اليوم قد استرد ذلك الانسجام وأصبح يملك الفراغ الكافي للكتابة ولذا فلا بأس أن يضيع منه نصف يوم في المران بعد طول الهجر لهذا الفن الرفيع الذي يحتاج إلى وضع نفسي خاص لا تحتاجه أية حرفة أخرى. وبعد أن برر لنفسه فشل الصباح انصرف إلى التفكير في زوجته أنها لم تتمدد في سريرها ساعة القيلولة كما كانت تفعل، كانت قد فقدت كل ضمان وكان الشعور بالخطر يحاصرها من كل جانب ولذلك فقد حرمت متعة الراحة. واستدل فريد من الهالة الزرقاء التي تحيط بعينيها على أن نومها رديء جداً وشعر من جديد بالحاجة إلى أن يقدم عوناً ما ولكنه عاجز عن تقديم أي عون سوى أن يضع على المنضدة حزمة نقود سرقها من

الآخرين كي تستعين بها عفراء على قضاء حاجاتها ولابد لهذه الحزمة من النقود أن تثير في نفسها شتى التساؤلات، من أين أتت ومن الذي أدخلها البيت وكيف استطاع زوجها الحصول عليها ــ إذا كان لا يزال حياً؟

ولكنه لم يحاول أن يرهق نفسه أكثر من ذلك فهو لا يستطيع أن يقوم بأي تفسير أو يقدم أي عون، كل ما يستطيعه أن يتألم دون أن ينتفع أحد بألمه فليكف إذن عن تعذيب نفسه.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر وهذا هو أشد الأوقات وطأة على نفسه، فهي الساعة التي يشعر فيها بالملل والعبث والفراغ والحاجة إلى الانتحار، وهي الساعة التي حاصره فيها الشعور بالتفاهة والانحطاط وهي نفس الساعة التي يبلغ فيها تمزق أعصابه وشلل إرادته حده الأقصى.

وطالما اشتهى أن يحذف تلك الساعة القاسية كما يفعل الآخرون بالنوم بعد الظهر لكي يبعث عند المساء مرحاً نشيطاً ولكنه لم يستطع أن يحقق ذلك فقد كان الخوف يحاصره دوماً في مثل هذا الوقت ويشعر أنه في برية خريفية خالية إلا من همس العدم. لقد تعود أن يهرب في مثل هذا الوقت: يذهب أحياناً إلى السينما أو يقرأ أو يسمع الموسيقى، وأحياناً كان يبدأ بالكتابة.

لقد كانت الكتابة دوماً دفئه الذي به اتقى قر الحياة وزمهريرها وكان هذا الشعور هو الشيء الوحيد الذي أبقى على صلته بالكتابة: فقد كانت حاجة ذاتية له ولم تكن أبداً جسراً يصله بالناس أو وسيلة لحفظ توازنه الاجتماعي وإن كان شديد القناعة بأنه يكتب للناس أو لجيل قادم منهم على الأقل. حمل دفتره وانحدر نحو البحر إلى المقهى المألوف، كان كل شيء ساكناً في تلك الساعة وكان الهجير يتراقص أمامه على الطريق والبحر يبدو كأنه مرهق يرتاح في قيلولة لا يقلق سكينتها سوى بعض الصيادين الذين كانوا يصلحون شباكهم وكان المقهى شبه فارغ تقريباً. اتخذ مقعداً بجوار البحر وأخذ يستعيد في ذهنه كل المشاعر التي تبعده عن الناس العاديين وتدفع به إلى الجانب الآخر من الحياة، نحو عالم الرؤى، خارج عالم الهموم والاهتمامات، كان يتخفف من أثقاله الأرضية كمنطاد على وشك التحليق، إنها العملية التي لابد منها لكل إبداع، إنك لن تستطيع أن تقدم إلى العالم شيئاً ما دمت أسيره، وكل مبدع يعرف ذلك، ينبغي أن تصل إلى مرحلة البطولة، مرحلة الغنى الكامل مرحلة الرفض للسعادة والاستغناء عنها بالرؤى. حقاً لا يبقى المرء دوماً على هذا المستوى فهو معرض كالبشر العاديين

لمشاعر التفاهة والانسحاق والمذلة ولكنه في لحظة الإبداع لا بد من أن يرتفع إلى هذا المستوى وإلا جاء إبداعه صنعة يمكن أن تحاكي، تلك هي النشوة الظافرة التي كان فريد ينشدها ويجهد للظفر بها في تلك الظهيرة ولكنه لم يستطع الوصول إليها، كان يشعر أن هناك أثقالاً من الرصاص تهوى به وأنه اليوم أشد كثافة من أي يوم مضى وأخذ يلقن نفسه هذه الأفكار: إنني الآن خارج العالم فعلاً متحرر من مشاغل الناس العاديين. إن كل فنان يشتهي ذلك وأنا نفسي كنت أحلم دوماً بإجازة تبعدني عن الناس والمشاغل والمسؤوليات كي أتفرغ للكتابة وهاهي الإجازة قد هبطت علي فجأة كنعمة من السماء فماذا يحول بيني وبين التحليق. ثم أخذ يعزو هبوطه النفسي إلى الطقس: ففي هذه الظهيرة الحارة، على هذا الساحل الكثيف المناخ لابد من بعض التراخي.. ونهض إلى داخل المقهى فنضح وجهه بالماء البارد وأعد ركوة من القهوة ورجع إلى مقعده يحاول الكتابة فعاد إلى الصفحات الست التي كتبها عند الصباح يقرؤها من جديد فبدت له تافهة لا قيمة لها إلا كحافز للانطلاق أشبه بالشطوب الأولى التي نجريها لكي تسلس كتابة القلم، إنه لن يتابع الكتابة بهذا المستوى التافه على الإطلاق،

إنه ليس مبتدئاً فقد أنجز آثاراً رائعة وإن تكن قليلة في ظروف شديدة القسوة كان فيها إنساناً عادياً حاملاً جميع مسؤوليات الحياة، ومع ذلك فقد استطاع أن يختلس من زمانه الضائع اللحظات الكافية للإنجازات العظيمة. ولم يستطع أن يضيف سطراً واحداً إلى الصفحات الست التي كتبها عند الصباح لأنه كان يريد أن يرتفع فوق مستواها، نحو مستوى الإبداع الحقيقي الذي لم يستطع أن يبلغه.

كانت الساعة قد بلغت السادسة مساء وبدأت الجموع تتوافد نحو البحر وبدأ المقهى يغص بالناس فنسي فريد نفسه وأخذ يتابع أحاديثهم. ورغم أنه لم يقض سوى ثلاثة أيام معزولاً عن العالم فقد شعر أنه أشبه بأهل الكهف الذين استيقظوا فوجدوا أن العالم قد تغير. شعر أنه لا يزال يتلهف على العودة إلى العالم وعلى أن يتبادل مع أصدقائه وزملائه الحديث، إن التفرج وحده لا يكفي ورغم أنه لم يكن في الماضي شديد الحماس إلى النقاش فقد شعر الآن أنه بحاجة ماسة لكي يبدي آراءه في السياسة والأدب والفكر وهو بحاجة أيضاً إلى أن يجد أجوبة للأسئلة الكثيرة التي بدأت تغلف ذهنه، إن المعرفة هي ثمرة الحوار الدائم بين فكرين متناقضين مخلصين وهي إبداع ما

تكون اكتشافاً أو اطلاعاً ساكناً، إنها ليست موجودة بشكل جاهز في مكان ما، يكفي أن ندير عيوننا نحوها لنراها ولكنها كامنة في أعماق البشر وهم يقومون بتوليدها في أذهان بعضهم البعض. لقد تذكر الآن الدور العظيم الذي قام به أصدقاؤه ـ عن طريق الحوار وتصادم الأفكار ـ لكي يصححوا نظرته إلى نفسه وإلى الوجود، حقاً إن أفكارنا ليست ملكنا ولكنها تراث مشترك كوناه مع الذين يتفقون معنا ومع الذين يختلفون.

كان أصدقاؤه يجلسون في مكانهم المألوف فاقترب منهم وكانت أحاديثهم لا تزال تحمل طابع الجد رغم ما تعرضوا له من ازدراء الظروف. ووصل إلى أن ما يعاني من ركود ذهني هو نتيجة انقطاعه عن العالم الذي كان حافزاً له فيما مضى.

لقد أدرك الآن ما يفتقر إليه. إنه يريد الصعود إلى أعلى قمة في نفسه، إلى أفرست ذاته ـ كما يقولون ـ من أجل أن نرى رؤية كافية يجب أن نصعد إلى أعلى مرتفع ممكن وبذلك نشرف على العالم وعلى رؤية أنفسنا معاً وأخذ يستعرض في ذهنه اللحظات التي يسمونها لحظات الوجد والتي كان فيها متربعاً على أفرست ذاته، كانت تلك لحظات اللقاء الإنساني، لحظات

الصداقة والحب، ما من نشوة كانت أعمق من نشوته وهو ينظر إلى البحر مع زوجته وصديقه.

إنه الآن أمام البحر ذاته وهو يجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه ولكنه كان في تلك اللحظات الماضية متألقاً متوهجاً بينما هو الآن يغوص في المناطق الرطبة من نفسه، الغوص في المناطق الرطبة! طالما عانى هذا الشعور خصوصاً بعد النفي ـ وهو الاصطلاح الذي كان يطلقه على عزلته ـ إن أقصى ما يملك في هذه الأيام أن يحافظ على نفسه من التبدد والتبعثر.. قد انفرط عقدي ـ هكذا خاطب نفسه.

يا إرادة نفسي التي أدعوها مصيراً

احتفظي بي واحفظيني لمصير أعظم.

(نيتشه)

حل شهر آب بفخامته وروعته، شهر النضج والمواسم، يوم تتمدد الطبيعة تلفها تلك الغبطة الساكنة كأم اطمأنت إلى سلامة وليدها وإلى أنها أدت أمانتها. حقاً لا تملك الطبيعة في ذلك الشهر غنى نيسان ولا أزهاره أو براعمه أو ينابيعه أو سواقيه فهي تكتفي بثوب أصفر بسيط خال من الفتنة والتبرج كأم ناضجة في الثلاثين لم يعد يهمها أن تثير الفتنة. بينما هي في نيسان فتاة مراهقة غير واثقة من ذاتها ومن وجودها.

إن الطبيعة هي المرأة ـ هكذا فكر فريد ـ إن المرأة تظل تعلن عن وجودها بشتّى الوسائل والأساليب حتى تطمئن إلى أن الرجل قد اكتشفها وعند ذلك تربض ساكنة فقد انتهت مهمتها وبلغ النوع غايته منها. وكذلك الطبيعة فإنها في نيسان تكون في مرحلة الإعلان عن الذات بذلك الضجيج وتلك الألوان وذلك العبير المحمول على النسمات وتلك الإنارة المسرحية الرائعة حيث

يتناوب النور والظل بفعل السحب الخفيفة التي تقوم بدور الستائر الشفافة التي تزيد الفتنة بسبب أنها تبقي على بعض السر.

كان فريد يحب الصيف، لا صيف المصايف حيث الضجيج والتفاهة وقتل الوقت، حيث ينقل الناس معهم كل ما يعينهم على الهرب من الطبيعة وقتل روحها وتدمير بكورتها وبذلك يتخلصون من الخوف البدائي القديم الذي تثيره الطبيعة في نفوس البشر، ذلك الخوف الذي يشتد في آب ليبلغ أوجه في تشرين ــ الخوف من الفراغ والعدم ــ إن الطبيعة تضع الإنسان أمام مسؤوليته الذاتية وترغمه على طرحه الأسئلة ولذلك فهو يفر منها بالتجمع والقطيعية فتجد الناس ينسجمون على اختلاف أذواقهم عندما يحسون بهذه العزلة التي تبعثها الطبيعة في نفوسهم فتبعث معها الخوف والأسئلة المريبة.

وفريد مثل بقية البشر يخشى الأسئلة المريبة لأنها أوصلته ذات يوم إلى العبث المطلق وإلى استشراف الهاوية فقد مضى ذات يوم في نوع من العبث الصبياني يسأل عن معنى حياته: إنه مدرس ناجح وكاتب ناجح وما قيمة كل ذلك.. وأوشك في ذلك اليوم أن يكف عن طرح الأسئلة وأن يفقأ عينيه كي لا يرى. ووصل إلى حقيقة غريبة وهي أنه لا يجوز السؤال عن الغايات البعيدة

للحياة، إن الحياة ـ كما يقول كانت ـ غائية بغير غاية، إنها اندفاع نحو هدف، عندما تحدق فيه، تجده تافهاً لا يستحق اسم الهدف. ولذلك لا يجوز لك أن تشك بقيمة الهدف وأن تنصرف عن النظر إليه إذا شئت العبور على الحبل المشدود فوق الهاوية ـ كما يقول نيتشه ـ إن كل حياة قائمة على نوع من الإيمان غير المبرر، على موضوعة أساسية لا يمكن البرهان عليها كموضوعات الرياضيات، إن هندسة إقليدس تبرهن كل النظريات ولكنها لا تستطيع البرهان على موضوعاتها. وكذلك كل إنسان يستطيع أن يشك ويهدم ولكنه لا يستطيع أن يشك في معنى حياته، هدفها الأسمى.

لقد شك فريد ذات يوم في قيمة الكتابة وبالنسبة لحياته فرأى أنه يستطيع الاستغناء عن الشهرة والمجد والكسب المادي فهي أمور لا تستحق الثمن الباهظ الذي يدفعه من أعصابه وراحته وتماسكه النفسي ـ لأن كل فنان ممزق بالضرورة ـ وأوشك أن يرتاح إلى هذه النتيجة وهي أنه سيتخلى عن الكتابة ويحيا إنساناً عادياً ـ وهي حالة يؤدي الإرهاق بالفنانين إلى أن يطمحوا إليها ـ ولكن شيطان الفن لا يلبث أن يهتف بهم جميعاً: أناتكم فما لهذا خلقتم، وإني أتحداكم أن تعيشوا كذلك.

والحق أنه ما من فنان حق استطاع أن يتوقف عند هذه المرحلة وإن كان أكثرهم قد مر بها. وقد تجاوزها فريد منذ زمن مقتنعاً أنه موجود من أجل الكتابة كما أن الشمس موجودة من أجل أن تنير وكما أن الزهرة موجودة من أجل تنشر الأريج.

استطاع فريد بنوع من الإيمان غير المبرر بهدف حياته أن يستمر وأن ينظر إلى الحياة بثغر باسم رغم التمزق الذي كان يصيبه أحياناً، وبهذا الإيمان غير المبرر استطاع أن يحتفظ بمحبته للطبيعة وأن تكن هذه المحبة قد ظلت مرفوقة بالخشية التي كانت تدفعه إلى عالم الناس، كان يعيش مع الطبيعة ومع ذاته فترة من الزمن ثم يصاب بالدوار من فرط الفراغ والخلاء والوحدة فيرجع إلى عالم الناس ويرتاح فترة إلى القطيعية. ولكن سرعان ما يشعر بالتفاهة والابتذال فيعود إلى نفسه من جديد ليعاني الدوار والخوف كانت حياته طريقاً انهارت نهايتاها، متاهة مسدودة من أحد طرفيها بالخوف ومن الطرف الثاني بالتفاهة. كان يحب الصيف وكان يشارك فيه الطبيعة شعورها، شعور الأم التي اطمأنت إلى سلامة وليدها، فقد كان إنتاجه ينجز في الصيف دوماً لأنه كان مدرساً فراغه مكثف في ذلك الفصل الذي كان بمثابة زمان الملكوت بالنسبة إليه لأن

الزمن الذي يعيشه مع نفسه، مع الكتابة، أما بقية العام فقد كانت ملك الآخرين، كانت الضريبة التي يؤديها نحو عالم الضرورة. كان عليه أن يعيش مواطناً وإنساناً. ومن أجل ذلك كان عليه أن يعمل ولكن إنسانيته كانت وسيلة لذاته ولذلك فقد كان ينفق ثلاثة أرباع العام ملكاً للآخرين وهي فترة لا تبرره أبداً ليقضي بعد ذلك ربع العام ملكاً لنفسه مخلصاً للبعد الثالث، للبعد الداخلي من حياته.

أما هذا الصيف فقد أنفقه مبعداً منفياً. أنه لا يزال يحاول الكتابة منذ خمسة أشهر دون أن يستطيع تجاوز ست صفحات تافهة لم يرض عنها اطلاقاً. شعر أن شيطانه قد تخلى عنه أو أنه فقد الحماية، حماية ملاكه الحارس وهو شعور مرير بالنسبة للفنان لأن الملاك الحارس بالنسبة لهؤلاء الأطفال هو بديل عن الأب، لا الأب الذي نعرفه عندما نبلغ سن الرشد بل الأب الذي عرفناه ونحن أطفال، أب قادر ذو سلطان نجد عنده ضماناً لكل شيء وضد أي شيء ولذلك تبدو الحياة في ظله نزهة شائقة. إن الفنان يحتفظ بهذه الحماقة الرائعة بسبب أنه يحتفظ بطفولته فيظل يشعر أن ملاكه الحارس يقيه العثرات ويحميه من الفشل ولذلك فإن الشعور بموته. بالنسبة للفنان أشبه بالشعور بموت

الأب بالنسبة للطفل أي الشعور بالعجز الكامل عن الاستمرار. كان اليأس قد بدأ يدب شيئاً فشيئاً في نفس فريد ــ والفنان سريع اليأس من كل شيء إلا من فنه وأخذ يشعر أنه بدأ يتدحرج على السفح الثاني من ذاته ليغوص إلى الأبد في مستنقعه الرطب وأخذ يهيب بشيطانه القديم ويقاوم الانهيار بنوع من التفكير السحري.. ويلقن نفسه بأن العناية لا يمكن أن تتخلى عنه وأن الطبيعة قد تعبت في إعداده وأن له رسالة وأنه جعل ليكتب ولكن العقل البارد بدأ يأخذ بخناقه ويسخر منه: إن الطبيعة لا تهتم بالغايات وأن جعل الإنسان نفسه مركز الكون لون من التفكير الطفولي المشبع بالغرور. إن الطبيعة تحطم النماذج التي تعبت كثيراً في صنعها فهي قد حطمت أنواعاً كاملة من الأحياء وحضارات ألقت بظلها على التاريخ ردحاً طويلاً من الزمن، الطبيعة طفل عابث يدمر بسرعة ما تعب في إعداده. وأخذ يكثر من الخروج إلى الطبيعة ففي حضنها الأمين كان يلتقي بشيطانه الذي كان يعينه على بلوغ ذروة ذاته، على معانقة الوجد. ولكن عبارة الوجد نفسها أخذت تبعث في نفسه السخرية فالشيطان الملهم خدعة قديمة والملاك الحارس وهم يجسده خيال الشاعر، الطفل الذي لم يبلغ فطامه النفسي بعد.

أخذ عقله المنطقي يسخر من عقله السحري وأخذ يشعر بزوال البريق الأخاذ الذي كان يضفي على الوجود حلة من الجمال الرائع. كان أشبه بطفل بلغ سن الرشد دفعة واحدة فقدت الأشياء طرافتها فجأة وبدا له الكون في تلك اللحظة ــ وهو جالس في المقهى الشرقي المطل على الحقول ــ عالماً من الأشياء المتراكمة، لا لون لها ولا طعم ــ البحر والسفن وكروم الزيتون وحقول الحنطة التي أصبحت حصيداً فارغاً. كل هذه الأشياء قد حال لونها وزال سحرها حتى لكان العالم قد قفر فجأة من تحت ضوء القمر حيث الجمال والسر يغلف الكائنات إلى ضوء الظهيرة الذي يصفع بقسوته ووضوحه. كان عالماً متموجاً: نصفه نار ونصفه ألوان، فإذا به يترمد فجأة ويغدو أشياء ميتة ليس بينها أي همس إذ ليس لديها أي سر. وهو لا يعدو أن يكون شيئاً من هذه الأشياء الميتة المحيطة، شيء تافه لا قيمة له لا يستطيع أن يشارك الناس أو الأشياء. ومع ذلك فلم يخل شعوره بالموت الروحي من الفخامة المسرحية، فقد كان يشعر ــ ككل ذوي الرسالات الذين ينقض عليهم القدر ــ إن موته ليس كموت أي فرد، الطبيعة تضحي بجزء عظيم منها. إن هؤلاء المهووسين لا يعانون أمام الموت حسرة الإنسان العادي الذي يشعر

وهو يموت أنه ينسل من العالم انسلالاً وأن العالم سيبقى بعده محتفظاً بكامل رونقه وبهائه، ولكن يشعرون أن العالم يتحطم معهم. وأن الطبيعة ترتكب حماقة كبرى إذ تدمر نفسها ولذلك فإنهم يمضون وتمضي معهم عوالمهم وهم، إذ يموتون على هذه الصورة الوهمية الرائعة، فإنهم يزدادون توهجاً إذ يموتون، ذلك التوهج الذي يتقد به وجه البطل وهو يعانق المأساة لأن البطولة تحتاج إلى صعوبات تناضل ضدها.

كان فريد يقف في ذلك اليوم كجيل يشهد انهياره، كسنديانة تشهد موت جذورها، وارتاح إلى شعوره في ذلك اليوم، رغم أنه كان الشعور بالموت الروحي، موته وموت الوجود معاً لأن ذلك الشعور بالنهاية قد أعاده إلى ذروة نفسه لفترة قصيرة جداً، إن الشعور البشري كالمصباح، يتوهج عندما يوشك على الانطفاء.

كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة ظهراً وهو جالس في ذلك المقهى كجراد عجوز مشرف على الموت تحوم فوقه غربان الشؤم وهو يهمز همته دون أن يحظى منها بجواب، كمتسلق الجبال الذي أفلتت يده فظل يتدحرج على السفح وهو يحاول التشبث بأي شيء. وكانت جموع الناس تمر به دون أن تحفل به

أو يحفل بها، كان قد أصبح شيئاً منسياً حتى من نفسه وتذكر زوجته، أنها لا تزال حية مع طفلها ولا يزال يضع لها على الطاولة المبلغ الذي يسرقه من أجلها كما يسرق طعامه أيضاً.

لا يستطيع الإنسان أن يناضل ضد التفاهة كما ناضلت ــ هكذا قال لنفسه ــ منذ ستة أشهر وأنا أقاوم عوامل الانهيار ولكني اليوم لا أستطيع تجاهل الحقيقة، أنا حشرة كريهة تسرق لتأكل وتأكل لتعيش، وتعيش من أجل لا شيء.

شعر بالجوع فانحدر نحو مقهى البحر ليتناول السمك والبيرة كعادته، وهناك يتصرف كأنه في بيته كما اعتاد أيضاً فأحضر لنفسه البيرة والسمك، وجلس على طاولة منفردة وأخذ يشرب ويتأمل البحر الذي بدا في تلك الظهيرة بلوراً مذاباً ترسل قطراته تحت شعاع الشمس وميضاً باهراً للعيون وعاودته بقية من الوجد القديم بعثها عنده البحر والبيرة فبدت شهاباً من الأمل يومض في الظلمة القاتلة، وأوشك أن ينسى أنه منفي ومطرود ولكن سرعان ما هوى من جديد ومات البحر مرة أخرى وأخذت البيرة تحوله إلى خنزير مترف وتشده نحو الأرض كما تفعل بالناس العاديين بدل أن تزيد في أثيريته وتصعد به نحو ملكوته، كان المقهى غاصاً بالنساء وشعر أنه يميل إليهن فأخذ يلتهمهن

بنظراته، وتذكر زوجته.. لقد كان طيلة عامين مركزاً جامعاً لأحاسيسه الجنسية والجمالية معاً ولم يحدث طيلة هذين العامين أن شعر بإعجاب حقيقي نحو امرأة أخرى وإذا نظر إلى امرأة فقد كانت نظرته إنسانية تتسلق الوجه لتستجلي معانيه. أما اليوم فإن نظراته تنزلق عن الوجه نحو مثيرات الجسد، وحاول أن يبذل بعض الجهد في سبيل أن يتشبث بالوجه، بالمعنى الإنساني، ولكن جهوده كانت تذهب عبثاً كما ذهبت من قبل محاولاته للاحتفاظ بالتوتر الذهني العالي، بالتربع على قمة ذاته.

قد يكون الأمر راجعاً إلى البيرة ـ هكذا علمه علم النفس ـ أن الخمرة إذ تخدر الدماغ تذهب بسلطان الرقيب فتستيقظ المراكز الدنيا ومنها الغرائز، ولكن الخمرة ليست مسؤولة تماماً فكثيراً ما شرب البيرة بعد زواجه وتعرض لإغراء أشد، وقد كان يتماسك كل مرة دون أن يحتاج إلى بذل الجهود التي بذلها الآن. لقد تحول إلى إنسان عادي بكل معنى الكلمة وقد أضاع إلى الأبد ملكوته الروحي.

أسرع في تناول غدائه وترك بقية البيرة في الزجاجة دون أن يجرؤ على شربها، لقد أرعبته صرخة الجنس التي أخذت عروقه تضج بها، إنه معزول عن العالم ولن يستطيع أن يلبي هذا النداء

الوحشي إذا ما استيقظ، ونهض من مكانه وغادر المقهى مسرعاً إلى البيت، كانت أقدامه تزحف على الرصيف المحترق تحت شمس الظهيرة، وكان الألق المنعكس من البحر يبهر عينيه وشعر أن نشاطه لم يعد كما كان وأنه يسير متوكئاً على مفاصله.. أين خفة الراقصين في ساقيه عندما كان يعبر هذا الشاطئ في الأيام الخوالي مع أنه يعيش الآن حياة لا يبذل فيها أية طاقة ولا يزاول أي نشاط، يعيش كخنزير مترف.

لقد فقدت شيئاً ما ـ هكذا حدث نفسه ـ أو أن شيئاً قد مات في داخلي لا أستطيع تحديده كانت صرخة الجنس لا تزال تقرع أذنيه والتفت إلى الوراء رغم إرادته، ينظر إلى النساء من جديد.

أسرع إلى البيت ليشاهد زوجته. لقد كانت تعويذة تقيه شيطان الجنس عندما يحاول هذا الشيطان أن يتجاوز حده. كان ينشد تلك الإثارة الدافئة، الممزوجة بالحب التي كانت زوجته تشيعها في نفسه ليتخلص من تلك الإثارة المرعبة، المقرورة كأنها عاصفة هبت من فوق جبال الزمهرير، الوحشية كأن الإنسان قد انتكس إلى الحيوانية، الجائعة كأنها وحش خرافي لا يشبع، كان يشعر أن حزمة من الأفاعي قد أفلتت من عقالها واندسّت في عروقه تدب كيفما اتفق.

وصل البيت، كانت الزوجة جالسة تقرأ أقاصيص (أنطون تشيكوف) لقد علمها زوجها أن الأقصوصة فن رفيع وأنها أفضل مادة للقراءة عندما نكون مرهقين لا نملك النفس الطويل لمتابعة الروايات الضخمة. واقترب منها فوجدها تقرأ قصة الحوذي الذي دفن ابنته وحيداً ونهض إلى عمله وظل طيلة نهاره يعمل دون أن يجد كلمة عزاء ودون أن يجد إنساناً يستطيع أن يحدثه عن حزنه وعند منتصف الليل بعد أن انتهى من عمله، قاد جواده إلى الإسطبل وهم بمغادرته ولكنه أوشك أن يختنق بعبراته عند الخروج فرجع إلى الجواد وهمس في أذنه قائلاً: اسمع أيها الجواد: لقد ماتت ابنتي هذا الصباح وأنا حزين من أجلها.

كانت الزوجة تقرأ وخيل إليه أنها تبتسم، لم يكن وجهها قط بمثل هذا التعبير ولم يكن أبداً على مثل هذه الحالة من الوجد، كان كأنما قد غسل بنور إلهي وظن أنها تقول شيئاً بعينيها مثل: إني أشعر بوجودك. وانتظر أن ترفع عينيها عن الصفحة لتراه..

ولكن دمعة كبيرة انحدرت على خدها دون أن يضيع تعبير الوجه الرائع ودون أن يصيبه التشنج أو يضيع انسجام القسمات. كان وجهها لوحة رائعة أنيرت من الداخل، لا يسقط عليها النور

بل ينبثق منها، كانت مزودة بما يبقى بعد زوال القسمات وكانت تبدو كأنها تطاول الزمن وتسخر منه. وتذكر عبارة "أكوبيري": إنها الروح، ولو هبت على الصلصال لأرجعته حياً. ورفعت وجهها عن الصفحة، كانت روح المأساة لا تزال تشيع فيه دون أن تستطيع العبث بالقسمات، ولكنها المأساة الظافرة لا تلك المنسحقة المقهورة. وأدارت عينيها في الفراغ ومرت نظراتها به دون أن تراه، وتبدد الحلم الذي راوده: أن يعود إلى النور وأن يصبح مرئياً. ولكن مجرد رؤية الزوجة كان كافياً لأن يلم أفاعي الشهوة ويحجرها في أوكارها. ياللمعجزة إنها تستطيع أن تحميه دون أن تراه.

أيتها النظرات الداعمة لكياني، الحامية لوجودي، يا عفرائي الحبيبية إنك تجدين من يشاركك حزنك، ولكني أشد عزلة من حوذي أنطون تشيكوف الذي وجد جواده، إنني غير موجود حتى بالنسبة لجواد.

غادرت الزوجة غرفة الجلوس وذهبت إلى غرفة النوم لتقضي القيلولة، ولم يشعر بأية حاجة للرقاد رغم أنه كان مرهقاً فتمدد على الأريكة بكامل ثيابه دون أن يشعر بالحاجة لارتداء منامته وعاوده وسواس الكتابة من جديد. لقد كانت

الكتابة علاجاً كافياً له ـ كما مر ـ فقد كادت تخلصه من الشعور بالتفاهة والانحطاط والتهافت على مستوى الجنس، لقد كانت الهدف الذي يلم شتات نفسه ويوحدها كما تجمع العدسة في محرقها جميع الأشعة المنتثرة. إن ما عاناه اليوم من عربدة الجنس في عروقه يعود إلى حرمانه من الكتابة كما يعود إلى حرمانه من حب زوجته، إنه إذا فقد القدرة على الكتابة قد تحول إلى إنسان عادي يعاني المشاعر التافهة محروماً إلى الأبد من الوجد الذي يعانيه المتفوقون.

لقد انحدرت من قمة ذاتي نحو المناطق الرطبة حيث تدب أفاعي الجنس والغيرة والشعور بالتفاهة، والصغار. تلك القمة التي كنت أتربع عليها عندما كنت أكتب. ترى ما الذي أفقدني القدرة على الصعود إلى تلك القمة؟ ما الذي بدد الوجد من نفسي؟ أهي العزلة أم حرماني من دفء المحبة التي كانت عفراء تغمرني به؟ ولكن رحلات الوجد كانت رحلات فريدة دوماً وقد كانت الوحدة دوماً شرطاً لازماً للممتازين. ألم يخبرنا علم النفس أن شرط الإبداع الأساسي هو صدع بين الأنا والنحن بين الفرد والآخرين لأن الإبداع هو تحطيم الدائرة التي يدور فيها المجتمع؟

وها أنذا أعاني هذا الصدع بشكل لا مثيل له فأنا معزول عن العالم، منفي من عالم الناس بجميع أجيالهم، الحاضرين منهم والآتين، إن كلمتي لن تبلغ إنساناً أبداً، كلمتي محكوم عليها بالموت على شفتي، ملفوظة أو مكتوبة، لقد ماتت كلماتي دون أن تبلغ إذن عفراء أو بصرها فلم أستطع أن أسمعها النداء ولم أستطع أن أريها الحرف المكتوب وهكذا نفيت عنها إلى الأبد وما دامت كلماتي قد ماتت دون عفراء، وهي من تم التعاطف بيني وبينه دون كلمات، فلابد لهذه الكلمات أن تكون ميتة دون جميع البشر.

وما دام الأمر كذلك فلمن أوجه النداء؟ إن الكتابة نداء مهما زعم الكاتب أنه يكتب لنفسه، حقاً إنه معزول عن معاصريه، ولكنه يشعر أنه يكتب لقلة متفوقة منهم على الأقل وإذا انعدمت في رأيه هذه القلة المتفوقة فإنه يكتب للأجيال القادمة. وخلاصة القول إنه يكتب للناس، قد يكتب أحياناً لفرد واحد وقد يكتب لأجيال بعيدة ولكنه لا يعدو أنه يكتب للناس، للبشر. إن الكلمة هي نداء الإنسان للإنسان وما دمت على يقين تام من أن كلمتي لن تبلغ أحداً فلن أستطيع إرسال الكلمة إلى الأبد. إن الحيوان الجريح يصرخ ما دام يعتقد أنه

قريب من سربه، ولكنه عندما يعزل في الغابة يتألم صامتاً، إن الطيار يحلق مطمئناً ما دام واثقاً من وجود المطار ولكنه يضطرب ويفقد الزمام عندما يحلق فوق أقيانوس لا تظهر فيه جزيرة ولا يبدو له شاطئ.

لقد كنت أكتب وحيداً وكنت أنشد هذه الوحدة ولكني كنت على يقين من أنني سأعود إلى عفراء وكمال، فأقرأ عليهما ما كتبت، وكنت على يقين أيضاً من أن كلماتي ستتجاوز عفراء إلى جمهور أوسع وإلى أجيال قادمة أيضاً، أما اليوم فإنّ كلماتي لن تبلغ أحداً ولذا فإنني أرى الكتابة لوناً من العبث كما أن النداء في الصحراء لون من العبث الضائع.

ولهذا فقد انتهيت ككاتب ولم يبق لي سوى الصمت. عندما وصل إلى هذه النقطة من التفكير غمرته موجة من العرق البارد وأخذ يرتجف كالمحموم الذي قذف في بركة ماء باردة، ومهما أسرفنا في تصوير مأساة فريد في تلك للحظة فلن نتوصل إلى فهمها، لقد كانت مزيجاً من عذاب الوحدة ومن الشعور بالتفاهة والانحطاط، إن العزلة تظل مقبولة مستساغة ما دام صاحبها يعاني مشاعر التفوق والامتياز ولكنه عندما يشعر بالعجز عن الإبداع يهرع إلى عالم الناس يلتمس منهم تثبيتاً لذاته

المتصدعة. وهاهو فريد الآن يستطيع أن يكون صديقاً لنفسه، فقد هوى عن ذروتها ولا يستطيع أن يرجع إلى عالم الناس، لقد نفي من عالم الناس في المرة الأولى وهاهو ينفى من جديد من عالمه الخاص أيضاً، فكيف سيعيش إذن؟ ونهض من مكانه وأخذ يتجول في أرض الغرفة ودخل غرفة النوم وكانت زوجته نائمة لقد تعود أن يلتمس منها العون وحدق في وجهها طويلاً وتمتم وهو يخرج من الغرفة: حقاً إن الإنسان يتابع المستحيل، إن الرغبة لا عقل لها ولا منطق. إلام سأظل أستجدي الوجوه التي لا تراني؟!

كانت الساعة قد بلغت السادسة مساء وكان فريد قد ظل حتى هذه الساعة يدور في غرفته وينتقل إلى الغرف الأخرى كفأر المتاهة الذي تجري عليه التجارب في مخبر علم النفس. ذلك الفأر المسكين الذي يرى بصيصاً من الضوء فيظنه مخرجاً نهائياً فإذا هو يؤدي إلى رجفة كهربائية. كذلك كان فريد: تلمع في ذهنه الفكرة فتبدو له خلاصاً نهائياً ولكنه سرعان ما يسقط من جديد في متاهته المحيرة. كان أحياناً يعمد إلى مؤلفاته السابقة يحاول أن يستعيد النفس الذي أملاها، ولكنها كانت تبدو له غريبة عنه وكان يعجز عن متابعة أفكارها

ويتعجب من مقدرة صاحبها على الإبداع، كان يشعر بالصغار تجاه الروح التي أملتها ولم يستطع أبداً أن يرتفع إلى مستوى الوجد الذي كان يشيع بين سطورها.

كان يعاني لوناً من المسوخية الروحية: عندما يشعر الإنسان أنه لم يعد متطابقاً مع ذاته أو هو غريب عنها أو أقل منها وفي مستوى دونها، عند ذلك يحدث موت الروح الذي كان يعانيه فريد طيلة ستة أشهر لم يعرف خلالها السلام، مرت بين شباط وآب. وتهالك على أريكة مستسلماً: لن أجد ذاتي مرة أخرى، لقد مات فريد الفنان مخلفاً وراءه فريداً مسكيناً عاجزاً، كم بذلت من جهد ضد هذه المسوخية وكم ناضلت ضد موت الروح وتذكر عبارة من (أوسكار وايلد):

هي صورة الأحزان، هي وجه بلا قلب.

والتفت إلى الوراء ليشهد ستة أشهر من الكفاح الداخلي والصراع الروحي وتذكر عبارة (فرنسوا مورياك): كيف عبرت هذه الصحراء ولم أحترق ظمأ.

واندفع مذعوراً نحو الباب الخارجي فانطلق في الشارع الرئيسي المؤدي إلى البحر، وعندما أصبح بين الناس وجد بعض الاطمئنان دون أن يشعر به أحد.

وصل إلى مقهى البحر وجلس يشرب البيرة لعلها تحمل بعض الهدوء لأعصابه الممزقة ونفسه ذات الصدوع. ولكن سرعان ما عربد الجنس في عروقه من جديد. كان الانهيار الذي أصابه قد أضعف مقاومته واستهلك قدرته على ضبط نفسه فلم يستطع هذه المرة أن يصرف نظراته عن النساء فتعلقت بمفاتن الأجساد بلزوجة غريبة، ولم يجد بداً من التفكير في حل للأزمة الطارئة كحكومة عاجزة لم تستطع أن تكبح رغبات الغوغاء فاستسلمت لها.

حسناً أيها القدر، لقد قبلت التحدي، لقد هبطت بي من ملكوتي وأرجعتني إنساناً عادياً ولسوف أعيش هذه الحياة العادية. كان يحدث نفسه حانقاً كطفل، دفعه الإسراف في القسوة إلى أن يكون جانحاً وتذكر الحياة المريرة التي عاشها تحت رحمة شيطان الفن الذي ظل يلهبه بالسوط طيلة حياته دون أن يترك له فرصة التوقف ليحيا، وتذكر كيف أنه حاول الهرب من ملكوته ذات يوم ــ كما حاول سائر الفنانين ــ محاولاً التخلي عن الكتابة والرجوع إلى الحياة العادية. سوف أثأر منك يا شيطاني العزيز سوف أثأر لحياتي الضائعة، لأيامي التي أنفقتها على قمم الزمهرير، لم تترك لي فرصة التمهل لأحيا

ولكنك أخذت تدفعني دفعاً وأنا أسترحمك كبريء يطلب الشفقة من جلاديه، طالما ركعت أمامك وأنا ألهث منهوكاً، أضرع إليك: برفق يا شيطاني برفق، إنني ماض في إكمال رسالتي، رحماك يا شيطاني رحماك، كل مالي فهو لك، أريد فقط أن أتزود بقليل من متع الحياة لأستمر..

ولكنك حلت بيني وبين أية متعة ودفعتني بقسوة وحشية نحو وادي عبقر عبر صحراء ليس فيها سوى القيظ والملح، وعندما عبرتها لم أصل إلى الواحة ولكن إلى أرض الزمهرير، أجل لقد كنت خارج الحياة والأيام التي أنفقتها لا تستحق أبداً اسم العيش، أيها العمر الضائع!

كل فنان عظيم يطلق صرخة يأس كتلك التي أطلقها فريد ذلك المساء، إنها نشيج الإنسان وهو ينسحق تحت وطأة الرسالة إنها بقية إرادة الحياة التي حولها الفن إلى إرادة علو وصعود من أجل رؤية أوضح.

ولكنها صرخة لا تستمر، وفريد نفسه قد أطلقها قبل اليوم وتراجع عنها. إن شيطان الفن ليس خارج هؤلاء التعساء كما يتوهمون ولكنه تقمصهم خلال تاريخ طويل من الغواية كما تتقمص الجنية صاحبها في الأساطير، وهو قابع في

أعماقهم يدفعهم من الداخل فيظنونه يعدو وراءهم، لقد أصبح ضميرهم وقائدهم في دروب الحياة وهم يشعرون نحوه بمسؤولية المؤمن نحو موضوع إيمانه. وهكذا عاد فريد إلى لوم نفسه، كيف تنكر لماضيه بمثل هذه السرعة، ما قيمته معزولاً عن ذلك الماضي الذي منه يستمد احترامه لنفسه وتماسكه وإنسانيته؟ كيف جحد ملكوته وهو يغوص في الطين؟

يا للوقاحة، لقد تبنى المسخ مسوخيته.

وكأني طردت طرداً من ذلك الملكوت ولم أختر مغادرته بنفسي، وها أنذا منذ ستة أشهر أحاول عبثاً العودة إليه. النبذ... يا للقسوة! ولكن كل إنسان عظيم لابد أن يعاني النبذ ذات يوم.

وتذكر عبارة "كولن ولسون": كل كاتب يتوقف عند نقطة يبطل عندها نموه ويأخذ بعدها بمحاكاة نفسه. وتذكر النماذج التي قدمها (ولسون) والتي توقفت كلها عند مرحلة ما، فمنهم من شعر بهذا التوقف، واستمر، ومات في عين ذاته واستمر يعيش زاحفاً وذكرى الملكوت لا تزال في نفسه تميته ببطء متدرج كما يفعل الزمن بأبنائه.

ومنهم من عاند بوقاحة واستمر في الكتابة دون أن يأتي بجديد فانتهى في نظر قرائه قبل أن ينتهي في نظر نفسه. وأنا قد

بلغت النقطة التي توقف عندها نموي، في قصتي التي نشرتها منذ عامين ومحاولتي الأخيرة التي توقفت عند الصفحات الست التافهة ليست سوى محاولة للاستمرار في عين الجمهور الذي بدأ ينظر إلي ككاتب، كما يستمر أي صانع في تقديم نماذجه لأن مهنته هي تقديم النماذج، لقد أصبحت كاتباً محترفاً وهكذا انتهيت.

المهم أنني بلغت النهاية الطبيعية التي يبلغها كل فنان فهي نهاية محتومة كالشيخوخة ذاتها، وإذن فلست بطل مأساة فريد كما خيل لي... حقاً لم يستنفد الفن غايته مني، فلا تزال بعض الممكنات الأدبية غافية في نفسي، ولكن الطبيعة لا تدقق كثيراً ولا تعنى بالتفاصيل أو قل أنها لا تعنى بشيء على الإطلاق، مامن زهرة إلا واختنق فيها بعض الأريج، ما من ربيع وإلا وكان يطمح إلى أن يتجاوز تموز، ما من محتضر إلا وكان يتمنى أن يخرج إلى الشرفة ولو للمرة الأخيرة ليشهد السماء وهي تعانق الأرض عند خط الأفق، لقد انتهى (رامبو) في السابعة عشرة بعد لحظة من الرؤية لم يجرؤ طيلة حياته على أن يطمح بمثلها، ترى ألم يكن قادراً على معانقة الوجد مرة أخرى؟ لقد أهمل رامبو من الطبيعة إهمالاً فظيعاً ولقي أقل عناية يمكن أن يلقاها أي إنسان عادي.

كلا لم تهملني الطبيعة ـ مع أنها تهمل كل شيء ـ فهي قد أخذت بيدي ككاتب إلى أن أعطيت كل ما لدي أو أكثر ما لدي على الأقل وبعد ذلك حجبتني عن عالم الناس بعطف لا مثيل له، فبعد أن تنتهي المسرحية يجب أن يسدل الستار كي تتاح الفرصة للممثل أن يستريح بعيداً عن أعين النظارة التي لا ترحم، وهذه فرصة لم تتح لغيري من الكتاب فبعد أن بلغوا نهايتهم الروحية وهم لا زالوا أحياء ظلوا مكشوفين للجمهور، يرتجفون عراة تحت رحمة نظراته القاسية وهكذا أنفقوا بقية حياتهم تحت وطأة الخزي والشعور بالصغار الناشئ عن نظرات الشفقة التي تنهال عليهم من النظارة الوقحة.

طالما حن رامبو إلى أن يسدل عليه ستار كثيف وقد فر إلى أفريقيا من أجل أن يصبح منسياً بعد أن حجب عن عالم الرؤية وبعد أن عجز عن تقديم شيء عظيم.

لقد حجبتني الطبيعة برحمة لا مثيل لها فبعد أن عجزت عن تقديم شيء ذي أهمية أصبحت إنساناً غير منظور، كي لا يرى الناس سوى فريد المعجزة لأن فريد المنسحق قد توارى إلى الأبد بل أن تواريه بهذا الشكل الغامض سيضفي طابع الأسطورة على آثاره وولع الناس بالأسطورة قديم. كأن الطبيعة تقول لي ـ وهي

لأول مرة تعني بأبنائها : ـ بعد أن أنجزت رسالتك ستكافأ بحياة عادية تمنيتها طويلاً دون أن تتاح الفرصة للناس كي يطالبوك بمهمات جديدة.. أجل سأبدأ الحياة.

وهكذا انتهى الصراع في نفس فريد ، ذلك الصراع الذي نشأ عن محاولة جمع الحياة والرسالة في مرحلة واحدة من العمر فهو سيبدأ اليوم حياة صرفا خالية من المشاغل والاهتمامات دون أي شعور بالتفاهة لأنه أنجز رسالته.

كان الجنس لا يزال كامناً في عروقه ينتظر الفرصة ليصرخ من جديد ، وعندما وصل إلى هذه الحالة من الانسجام أخذ الجنس يلح عليه بالنداء ، ألم يبرر لنفسه الحياة العادية؟ وبعد أن كان الجنس شيئاً مخجلاً بالنسبة إليه أصبح الآن من مقومات وجوده كأي إنسان عادي ليست له مهمة في هذه الحياة.

كان المقهى لا يزال غاصاً بالنساء. وأخذت نظراته تنزلق على مواطن الإثارة من أجسادهن وتذكر زوجته بنوع من تأنيب الضمير، لقد بدأ يخونها منذ الصباح وقد هرع إليها عند الظهر فراراً من هذه الخيانة وها هو الآن يعاود الخيانة دون أن يشعر بأي خزي وإن تكن خيانته لم تخرج بعد من نطاق الشعور ولكنها خيانة على كل حال. وتذكر عبارة الإنجيل: الحق أقول

لكم إن كل من نظر إلى امرأة واشتهاها فقد زنى بها في قلبه. إنه لم ينظر بعد زواجه إلى النساء مثل هذه النظرة ـ كما قلنا ـ ولكنه اليوم مرغم على ذلك فقد عزل عن زوجته ولم تعد نظراتها الدافئة تحنو عليه وتحميه. ثم إنه قد قرر الحياة العادية وهي حياة عمادها الأكل والجنس والتثاؤب، إنها الحياة التي ضيعها عندما كان إنساناً كبيراً. وعاودته الحسرة عند تذكير حياته الأولى ولكنه سرعان ما خنقها في مهدها. إنه يريد أن يخلص لحياته الجديدة ولن يسمح لأي وهم قديم أن يبدد هذه السعادة التي ظل ينشدها طيلة حياته إنها حياة عمادها الجنس إذن، ولكن كيف سيلبي هذا النداء؟ إنه معزول عن الناس وليس من سبيل إلى التفاهم بينه وبين أي إنسان. ولكن الجنس ليس بحاجة إلى التفاهم، الجنس ينشد الجسد، وأجساد النساء حاضرة بين يديه.

حقاً إن الحب حاجة إنسانية عميقة، إنه لقاء رائع بين شخصين ولكنه نادر بمقدار ما هو رائع، وإذا كانت عفراء قد حمته بنظراتها الدافئة طيلة حياته الماضية فليس كل الناس كذلك، ويكفي أن نذكر الذين يعاشرون البغايا والساقطات دون أي وميض من الحب بل إننا نستطيع أن نذكر الكثيرين من

الأزواج الذين ينتهي حبهم مبكراً وقد لا يتفجر على الاطلاق فيقضون العمر في عزلة نفسية مخيفة، إنك تستطيع أن تعثر عليهم عند الظهر في المقاهي يدخنون التبغ بأشكال مختلفة ويستعيضون عن دفء المحبة بالأحاديث التافهة مع الآخرين.

إن جميع هؤلاء لا يعرفون من المرأة سوى الجسد وهم يقضون حياتهم على هذا النحو، ليس لديهم سوى الجنس والجنس يكتفي من المرأة بالجسد. ولكنه لن يستطيع أن يمارس الجنس مثل بقية الناس إنه إنسان غير منظور فاي أذى سيسببه للمرأة.

أي ذعر ستعانيه المرأة التي يعانقها شبح غير مرئي؟ إن الصدمة قد تؤدي بها إلى الجنون.

ولكن هذه الفكرة ـ فكرة الأذى ـ لم تستطع أن تردعه، لقد قرر أن يعيش هذه الحياة فلم يبق له غيرها، وكما برر لنفسه أن يسرق كي يعيش فقد برر لنفسه الآن أن يتصل بالنساء ويلبي نداء الجنس مهما تكن النتائج.

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ليلاً وكان فريد قد أنهى عملية تواطؤ دنيء بينه وبين نفسه فقد قرر أن يعيش هذه الحياة العادية أو البرجوازية كما سماها، وهي حياة رتيبة مقننة

كل شيء فيها مقدار، حياة بعيدة عن المغامرة والتطرف، كل شيء فيها محسوب سلفاً، فيها الحذر من الألم، والاقتصاد في اللذة من أجل دوامها واستمرارها، إنها خيانة يمثلها خط القطار: الطريق مرسومة والمحطات موقوتة وبذلك يضمن صاحبها عدم التعرض للألم إذ أنه لا يسرف في اللذة. قرر فريد أن يعيش هذه الحياة (الراقية) التي يطمح إليها أغلب الناس ويلتزمها كل من أتيحت له لأنها الحياة التي تيسر الهدوء النفسي لصاحبها وقد كان الهدوء النفسي مطمعاً قديماً طالما حن إليه فريد في الماضي.

ومن أجل الإبقاء على الهدوء النفسي ينبغي أن نخفف من غلواء الحس الخلقي وألا نسمح لوسواس الضمير أن يعذبنا، ينبغي أن نحتفظ بمقدار من الأنانية وأن نؤمن بسعادتنا ولو على حساب الآخرين. وعلى هذا النحو أخذ فريد يميت في نفسه مشاعر إنسانية كانت غالية عليه في الماضي.

والخلاصة لقد وطن فريد نفسه على الحياة الجديدة بكل ما تقتضيه من دناءة، وكانت مشاعره الجنسية قد تمركزت حول إحدى النساء الجالسات في المقهى وعندما خرجت تلك المرأة خرج وراءها يتبعها إلى بيتها وهكذا بدأ حياته الجديدة.

استمر فريد يحيا هذه الحياة بنظام مدهش وبتقنين بارع كما يفعل كبار البرجوازيين ــ مع أنه ينتمي إلى طبقة صغار البرجوازيون ــ كما أسلفنا ــ فيتناول طعامه في أفخم المطاعم. وكان يتناول كل وجبة في مطعم حسب الأصناف التي يجيدها. وكان يتناول قليلاً من الخمرة أحياناً وبشكل مقنن أيضاً، دون أن يسمح لنفسه بأي إسراف وكان يدخن سيكاراً فخماً، بعد كل وجبة طعام ويلبي نداء الجنس بانتظام أيضاً دون أن يسمح لنفسه بالإسراف فيختار امرأة ويتبعها إلى بيتها غير عابئ بالنتائج. ويحمل معه المجلات الخفيفة وبعض الأقاصيص القصيرة يقطع بها وقته عند الظهر وفي المساء كان يذهب إلى السينما.

ولكنه ظل على صلة ببيته فكان يأوي إليه ليلاً بعد أن يرجع من بيت إحدى النساء أو من السينما وظل يؤمن لزوجته المبلغ الذي يكفل لها ولابنها حياة لائقة ولكنه لن يقرب امرأته خشية أن يخيفها كما حدث في الأيام الأولى واحتراماً لها كذلك فقد كان يحمل شعوراً خفياً بأن الصلات الجنسية التي يقوم بها تفتقر إلى الإنسانية وليس فيها مقدار كبير من احترام الذات أو احترام الآخر.

ولكنه فقد اهتمامه بها فلم يعد يستلهم وجهها أو ينشد حماية نظراتها ولم يعد يتلهف على الحنان الدافئ الذي كانت تغمره به في الماضي وظلت صلته بها لوناً من الالتزام الأخلاقي احتفظ به نحوها فقط. واستسلم لحياته الجديدة وبدأت مشاعر الارتياح تظهر على وجهه الذي اختفت منه الغضون والزوايا الحادة، فتراخت العضلات ومال الوجه بمجموعه إلى الشكل البيضوي، وكذلك أخذ جسمه يميل إلى السمنة المترهلة. وقد أقلقه هذا الترهل فأخذ يمارس رياضة بسيطة ويتجنب النشويات كما يفعل البرجوازيين أيضاً.

والأهم من كل ذلك أن شعوره أخذ يترمد وإن كان في الأيام الأولى قد عانى بعض المشاعر القديمة مثل الحس الخلقي والحاجة إلى الآخرين، وإلى الإبداع والتوتر النفسي ومشاعر الوجد ولكنه بذل جهداً إرادياً كبيراً ضد هذه المشاعر التي لم تعد لازمة له في حياته الجديدة، وكان يناضل ضد الشعور بالتفاهة بأفكار صحيحة أخذ يغرسها في نفسه: إنه لم يختر هذه الحياة، إنها الحل الوحيد الممكن بالنسبة لوضعه. ولم يمض أسبوع واحد على جلسته في المقهى ـ وقد كانت أمسية خميس من آب ـ إذ تهرع الجموع نحو البحر لتهنأ بعطلة الأسبوع

ـ أقول لم يمض أسبوع واحد على تلك الجلسة التي قرر فيها الحياة الجديدة حتى كان قد روض نفسه على هذه الحياة البرجوازية وأخذ يعيش متمهلاً لأول مرة في حياته ويشعر بالهناء والسعادة فقد ارتاح لحياته الجديدة بعد أن تبرد شعوره وتصلب كما تبردت قشرة الأرض وتصلبت. كان حُرّاً وإن كانت حرية على حساب الآخرين ولكنه كان مغتبطاً بهذه الحرية التي لا تقابلها أي مسؤولية على الإطلاق إلا مسؤوليته نحو زوجته وهي مسؤولية لا تكلفه أي جهد فليس عليه إلا أن يسرق مبلغاً من المال يضعه لها على المنضدة دون أن يكون في هذه السرقة أي عنصر من عناصر المغامرة. أليس هو شخص غير مرئي؟ والحق أنه لم يسرف في استعمال حريته إلا نحو الآخرين فلم يستسلم للخمرة والتدخين وكان يقاوم نهمه إلى الطعام ولم يمارس الجنس إلا باعتدال أيضاً.

ولم يمكن ضبطه لنفسه بدافع خلقي فهو قد أمات هذا الدافع في نفسه منذ الأيام الأولى وأخذ يعيش حياته الجديدة دون أي تعاطف مع الذين يسرقهم أو مع النساء اللواتي يضاجعهن بل دون أن يشعر بأنه اقترف أي أثم رغم أنه كان يشهد ارتباكاً في المحلات العامة نتيجة تصرفاته ورغم أنه كان يترك النساء في

حالة من الرعب لا تقل هولاً عن حالة عفراء عندما عانقها يوم أصبح لا مرئياً.

كان يكافح كل شعور بالإثم وكل يقظة ضمير وكل وسواس أخلاقي بسلاحه الوحيد: هذا الأسلوب الوحيد من الحياة الذي بقي له، فالمسؤولية لا تقع عليه بشكل من الأشكال.

لم يكن ضبطه لنفسه بدافع خلقي ولكنه كان يخشى شيئاً ما في أعماقه، شيئاً لا يستطيع أن يسميه، كان يشعر أنه يسير على شفير هاوية لا قرار لها وأن عليه أن يحتفظ بأعلى درجات الشدة والتوتر والوعي حذر الهوى في هذه الهاوية السحيقة. وقد استطاع أن يدفع هذا الشعور بالخوف جانباً، فهو شعور طبيعي رافقه طيلة حياته، ألم يكن يخشى، يوم كان مع زوجته، الظهيرة الخريفية في تشرين ويقظة منتصف الليل؟ استطاع إذن أن يحتفظ بتوازنه ويعيش إنساناً سوياً ويصل إلى الحياة الهادئة التي طالما حن إليها.

وأخذ يحيا حياته الجديدة بعناد وإصرار عليها فيقمع بعنف كل فكرة وكل إحساس وكل شعور يمكن أن يضعف من إيمانه بها أو حماسه لها، شأنه في ذلك شأن حاكم متسلط يريد

أن يوطد حكمه بشتى الوسائل. ولكنه ظل مع ذلك يشعر أن هناك في أعماق نفسه شيئاً ما يقاومه وأنه قد بنى بيته الجديد فوق بركان ما زال يغلي بالحمم. وأن هذا الهدوء الذي يغمر حياته الجديدة ليس سوى هدوء ظاهري يحاول أن يخفي تحته صراعاً عميقاً. كان يشعر بالجهد، جهد المقاومة شأن المتسلط الذي لم يستطع أن ينسجم مع شعبه وكان هذا الشعور ينمو يوماً بعد يوم.

حتى إذا ما وصل إلى تشرين كان الإعياء قد بلغ منه حداً بعيداً، وصل إلى تشرين يلهث منهوكاً وحاول أن يبرر الأمر بقيظ الخريف فقد كان تشرين في الماضي يحمل له مثل هذا الإعياء ولكنه الآن إعياء من نوع جديد.

كان الشعور بالخوف قد توطد في نفسه دون أن يبقى له عليه أي سلطان وكان هذا الشعور قد استحال إل وساوس مرضية فأخذ يخشى المرور بالشوارع المزدحمة خشية أن يصطدم بالناس الذين لا يرونه فيثير لديهم شعوراً بالدهشة يدفعهم إلى البحث عنه والفتك به كشبح مرعب لابد من استئصاله من أجل أن تطمئن الجماعة. وبعد أن كان يسعى للقاء الناس في بداية محنته هرباً من وحدته ومنفاه أخذ يخشاهم ويتجنبهم. ولكنه

يخشى أيضاً السير في عرض الشارع لأن السائقين لا يرونه، وهكذا لجأ إلى الشوارع الخلفية التي كان يخشاها أيضاً ففيها يكمن شعور قديم بالعزلة والنفي. ونشأ عنده ذلك الخوف المرضي المسمى بالخوف من الفراغ فقد أصبح يخشى أن يداهم من الخلف وأن يفاجأ بمن يقبض على عنقه. لقد كان وجوده مع الناس، مع الآخرين يبعث في نفسه شيئاً من الاطمئنان دون أن يكون منظوراً من أحد، وكان يهرع إلى هؤلاء الناس كلما استبدت به مخاوف العزلة ولكنه الآن يخشى الناس كما يخشى عزلته. ثم أخذت هذه الوساوس تنصب على جسده فأخذ يحصي دقات قلبه وينتبه إلى كل تغير في جسمه ليفسره تفسيراً مرضياً، ونمت عنده هذه الرؤية الباطنية وأصبح دائم المراقبة لنفسه حتى وصل إلى مرحلة أصبح يشعر فيها بدبيب الدم في عروقه وبحركات معدته وتماس مفاصله. وزاد في عذابه شعوره أنه لا يستطيع اللجوء إلى الطبيب لأنه إنسان غير مرئي. وبدأ يفقد توازنه وقدرته على ضبط نفسه فلم يعد يستطيع أن يقف عند الحدود التي رسمها لها. ودفعه هذا الشعور بالنفي المطلق وهذا الإسراف في الرؤية الباطنية إلى أن يزدوج ويقف من نفسه موقف الآخر فأخذ يكلم نفسه ويحاورها وازداد عطفه على ذاته وحنوه عليها فأخذ يدللها كما تفعل الأم بابنها: سأسمح لك

بقليل من الخمرة زيادة على الحد المألوف وسأسمح لك بسيكار وسأسمح لك بمتابعة هذه الفتاة إلى بيتها رغم أننا لا نزال في الظهيرة.

هكذا أخذ يكلم نفسه وبهذه الروح المتسامحة بدأ يعاملها، واضطرب نومه وأصبح متقطعاً حافلاً بالكوابيس الفظيعة مثل السقوط في الفراغ ومثل الحلم الذي بدأ يتكرر لديه وينتهي في كل مرة بصرخة ذعر، ذلك الحلم الذي كان يشعر فيه أن الأرض قد تقلصت حتى أصبحت صغيرة وملساء شبيهة بكرة القدم وهو يحتضن هذه الكرة وحيداً ويدور معها في الفراغ مهدداً بأن تتخلص منه أو تهوى به.

كان هذا الحلم أشد وقعاً عليه من كل حلم آخر فكان يصحو بعده مذعوراً مغموراً بعرق لزج يغالب شعوراً كريهاً بالغثيان. وأصبحت رؤيته للعالم المحيط به تختلف عن ذي قبل، فبعد أن كان يراه في بداية نفيه عالماً مألوفاً صلباً وميتاً، بعد أن كانت الأشياء في نظره يوم كان يحاول الابداع في آب باهتة مترمدة مستقرة لا حياة فيها تصفع بوضوحها وتماسكها، تبعث على الملل بما فيها من ألفة وانتظام، بعد أن كان عالمه كذلك في آب أخذ هذا العالم نفسه يختلف في تشرين.

أصبح عالماً يبعث على الدهشة فما من شيء في مكانه الطبيعي وكل شيء يمكن أن يكون على غير ما هو عليه: يمكن أن تتغير هيئات السفن والمباني وتخطيط المدن ويمكن أن تتغير هيئة الإنسان نفسه فيصبح الناس بلا أنوف أو آذان وقد تكفيهم عين واحدة ويمكن للأشياء أن تتغير من ذاتها دون تدخل الإنسان أو الطبيعة فيمكن لهذه البناية أن تسير ويمكن لهذا الإنسان أن ينمسخ ويمكن لهذا الكلب أن يتكلم. وأصبح يشعر أن كل شيء على وشك أن يتغير فعلاً، بل أنه أصبح ينتظر أن يتم هذا التغيير، لقد أصبح العالم في نظره زئبقياً مرناً بلا زوايا أو أبعاد، يتغير باستمرار ويسيل باستمرار ويتشكل باستمرار دون أن يثبت على حال من الأحوال، أصبح عالماً مرتجفاً كأنه يراه منعكساً على صفحة بحيرة تموجها ريح مضطربة الاتجاه.

حقاً إن الإنسان السوي قد يتصوّر العالم على هذا النحو وقد يراه في الحلم كذلك ولكنه يظل يعتقد أن الأمر مجرد تصور ثم يرجع بعد ذلك إلى عالمه الطبيعي ولكن فريد أخذ يفقد صلته بالعالم الواقعي، عالم الناس المتماسك، وأخذ شيئاً فشيئاً يستسلم لعالمه المرتجف.

وكذلك صلته بالزمن بدأت بالاضطراب أيضاً فلم يعد زمانه زمان الناس المقسوم إلى صباح وظهر وسماء، إلى ليل ونهار، إلى ربيع وصيف وخريف وشتاء، إلى أعوام تتوالى بأحداثها دون أن تتشابه ولكن زمانه قد أصبح خطاً متشابهاً متجانساً لا اختلاف فيه بين آن وآن، حوادث الطبيعة عنده منفصلة عن خط الزمن فالظلمة والنور والبرد والقيظ والاعتدال أمور لا علاقة لها بتوزيع الليل والنهار والصيف والشتاء ولكنها مجرد حالات للطبيعة يمكن أن تحدث في كل حين دون مراعاة أي نظام، فيمكن للظلمة أن تبدأ عند الظهر ويمكن للثلج أن يسقط في تموز، ويمكن للطبيعة أن تثمر في كانون الثاني.

وباضطراب علاقته بالزمن اضطرب نظام حياته إذ أنه انحرف عن زمان الناس المفصول بالفواصل الحاسمة وأصبح يأكل في أي وقت ويخرج للنزهة في أي وقت فاستوى عنده الليل والنهار فكان أحياناً ينام نهاراً ويسير ليلاً. وحاول أن يعيد النظام إلى حياته بوساطة الساعة ولكنه لم يستطع أبداً أن يتابع عقاربها وفقد قدرته على الانتظار فكانت تبدو له أحياناً المسافات المرسومة على الميناء أطول من الخطوط المرسومة على خرائط البحارة بين الشرق والغرب وكان الزمن الذي ينفقه

العقرب في قطع هذه المسافات يبدو بالنسبة له دهراً لا ينفذ ولا ينتهي، ولم تعد هذه المسافات التي تفصل بين أرقام الساعة متساوية في نظره، وكذلك الزمن اللازم لعبورها، فبعضها كان ينكمش وبعضها يتمدد حسب مناخه النفسي المضطرب.

وعندما وصل إلى هذه المرحلة من الاضطراب، عندما فقد قدرته على ضبط نفسه بعد أن اضطربت علاقته بالزمان والمكان ومزقته الوساوس المرضية، عند ذلك بدأت حياته الجنسية تضطرب أيضاً، وبدأ هذا الاضطراب في أول الأمر بالخروج عن حدود الاعتدال إلى رسمها لنفسه، فأخذ يتابع النساء في كل وقت.

وبعد أن أفلتت غريزته من عقالها الإنساني، بعد أن انفصلت الغريزة عنده عن مضمونها العاطفي ــ لأنه لم يكن يخاطب سوى الجسد، لأنه كان يضاجع الموتى على حد تعبيره لنفسه ــ عند ذلك أصبحت غريزته أفاعياً انطلقت من سجنها وأخذت تدب في كل اتجاه.

أصبح سريع الملل فصار تبعاً لذلك يبحث عن أنواع جديدة من النساء عن صور جديدة للإرواء وأخذ يبحث عن النماذج الغريبة، والشاذة، عن الزنجيات، والمشوهات؟!

ولم يجده الانحراف شيئاً فقد وصل إلى المرحلة من الشبق التي لا تعرف الارتواء، المرحلة التي يقول فيها العوام: إنها شرب ماء البحر الذي لا يروي، المرحلة التي يقول فيها القديس أوغسطين: إنها محاولة ملء برميل لا قاع له، المرحلة التي سقط فيها "بودلير" وكانت حياته جهداً مستمراً للخروج منها:

سأظل دائماً، وربما إلى الأبد، كذئب سقط في كمين، أثب إلى قمة المثل الأعلى.

المرحلة التي يمكن أن نقول فيها إنها مرحلة ينبوع الظمأ الذي يزيد في ظمأ الشارب بدل أن يرويه. أصبحت غريزته نزوعاً دائماً وجوعاً دائماً وظمأ دائم، كلما أسرف في إورائه طلب المزيد، ووصل إلى المرحلة التي قال فيها "بايرون": ليت النساء جميعاً ثغراً واحداً، إذن لقبلته واسترحت.

وأخذ يحشد النساء بالجملة فدخل دور الطالبات وحمامات النساء ثم أخذ يحشد أنواعاً مختلفة من النساء من أعمار مختلفة فلا تزداد غريزته إلا جوعاً ولا يزداد قلبه إلا فراغاً. ودفعه هذا الشعور بالفراغ، هذا الجوع الذي لا يعرف الارتواء إلى القسوة وارتبطت عنده هذه القسوة بالممارسة الجنسية فأصبحت لذته

مقرونة بتعذيب النساء. ولكن الإمعان في اللذة لم يكن يزيده إلا شقاء ثم امتدت هذه القسوة إلى جميع الناس فأخذ يدخل مضاجع الأزواج السعداء ويعرضهم لأصناف من الأذى. وتمادى في الشر وأمعن فيه وأسرف في تلبية الجنس والانحراف به دون أن يحظى بطائل حتى أصبح أشبه بالأباطرة الرومان المتأخرين الذين كانوا يشعرون بحريتهم في إتيان كل شيء دون أن يستطيعوا الحصول على ما يريدون ودون أن يعرفوا الارتواء ولذلك كانوا يعيشون في مأساة مستمرة. وأصبح يكره حريته التي أصبحت عبئاً عليه، عبئاً ثقيلاً لا يعود عليه بذرة من السعادة. وأصبح شبيهاً بصورة (دوريان جراي) التي كانت تحمل آثامها ولم يعد يطيق قبحه أو يطيق النظر في المرآة وأصبح عدواً لنفسه لا يستطيع أن يخلو بها أو يجتمع بالناس.

وفي صباح يوم من تشرين ــ وكان يجلس في فراشه منهوكاً بعد أن أصبح النوم شيئاً نادراً بالنسبة إليه، وبعد أن أمعن في الخمر والجنس باحثاً عن المستحيل ــ في ذلك الصباح كان اليأس قد استقر في أعماق نفسه، كان قد وصل إلى أسفل الهاوية بعد وقفات قصيرة على السفح ظنها نهائية. في ذلك

الصباح كان قد يئس من قرع صدور النساء باحثاً عن اللقاء الدافئ محاولاً تفجير المحبة. شأنه في ذلك شأن (دونجوان). الذي أنفق عمره يقرع صدور النساء باحثاً عن المحبة ولكن (دونجوان) استطاع أن يطوي على المأساة ويبدو ظافراً. أما هو فمنسحق ومهيض.

ودفعه اليأس إلى ارتكاب حماقة فظيعة، فعندما استيقظت زوجته واعتدلت في فراشها نهض من فراشه وذهب إليها وانحنى فوقها وأخذ يوسعها ضمّاً وتقبيلاً، محاولاً بشكل غير معقول، حملها على أن تراه:

يقولون إن الحب يقاوم الموت وينتصر على الزمن ويتجاوز المسافات ويصل بين المحبين.

يقولون إن الحب يستغني عن اللغة إنني أنا (فريدك) القديم ألا ترينني؟ لابد أنك ترينني.

وأخذ يهذي على هذا النحو، ولكن عفراء صرخت مذعورة وأخذت تدفع بيديها في كل اتجاه كمن هاجمته الأشباح، وارتمت في نوبة إغماء.

حاصرت فريد عند ذلك كل المشاعر المميتة: الشعور بالإثم، والشعور بالنفي، واليأس، ثم الشعور بالنهاية. وتمدد على أرض الغرفة محشرجاً، تتردد في ذهنه عبارة (كافكا): كما يموت الكلب.

وأسلم آخر أنفاسه، واستيقظت عفراء من إغمائها بعد حين لتجد زوجها جثة هامدة، شوهاء، تنطبع على وجهه معاني القسوة والألم المرير.

إصداراتسلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري -رواية وثائقية	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد /د.طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم -بدر شاكر السياب	د.خالد البرادعي	د.حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني)/ إطلالة على :(المصطلح النشاة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني	د.حسين	عبد	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
	رائد المسرح العربي	جمعة	القادر الحصني	
11	نازك الملائكة	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر ﷺ الحريري مختارات	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د.حسين جمعة	د.خالد محي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د.حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د.حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
21	التراب الحزين بديع حقي	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى-نزار قباني	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق -مكان وسكان وألوان	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة - خليل السواحري	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009
30	محمود درويش - مختارات شعرية من دواوينه والانترنت	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمال أخرى-غسان كنفاني	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
32	عذبة رواية-صبحي فحماوي	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
34	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د.حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)-علي المزعل	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د.حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيرى الذهبى	د.حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع -رشاد أبو شاور	د.حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمالي ـ ـ مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبير سلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية -د.خليفة صالح أحواس	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د.ابراهيم الجرادي - عبد	د.ابراهيم الجرادي - عبد	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
		العزيز المقالح	العزيز المقالح	
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د.حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمي العربي - رقم 004 بأمركم	د.طالب عمران	د.طالب عمران	2011
48	الله والغربي مختارات شعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د.ثائرزين الدين	2011
49	مایاکوفسکي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليأس : أمل يستنسخ أوصافه	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
51	الفراتي مأخوذاً بالوردة والسيف مختارات شعرية	د.حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د.علي جعفر العلاق	د. ابراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جان جاك روسو المصلح الاجتماعي - عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د.جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) عام 1968 مدحة عكاش-	د.حسين جمعة	مالك صقور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصير - الشاعر القروي رشيد سليم الخوري	د.حسين جمعة	د.ثائرزين الدين	2012
65	عبد اللطيف عقل دراسات ومختارات	ياسين قاعور	ياسين قاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د.حسين جمعة	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د.حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د.نزار بريك هنيدي	د.حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ.محمد راتب الحلاق	مالك صقور	2013
76	صالح العلي ثائراً وشاعراً	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د.نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د.نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
97	الإسلام بين العلم وألمدنية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2015
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015
102	غابة الحق (أفق التنوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د.نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د.نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د.نضال الصالح	2016
105	أسرة المرّاش الأدبية في حلب	د.نضال الصالح	عيسى فتوح	2016
106	الجوهر الرجعي للصهيونية	مالك صقور	مالك صقور	2016
107	سريال وقصائد أخرى	د.نزار بريك هنيدي	د.نضال الصالح	2016
108	حضارة الطين	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
109	ضرورة الفن الجزء الأول	نذير جعفر	مالك صقور	2016
110	ضرورة الفن الجزء الثاني	نذير جعفر	مالك صقور	2016
111	قادة الفكر	فلك حصرية	مالك صقور	2016
112	جرائم تركيا في سوريا والعراق والحجاز ولبنان	حكمت إبراهيم هلال	مالك صقور	2016

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
113	خارج الحريم	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
114	عيسى عصفور (بلاغة البازلت)	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2016
115	رحلة الشام لإبراهيم عبد القادر المازني	د.نزار بني المرجة	د.نضال الصالح	2017
116	(عملاء النفوذ) وتفكيك الاتحاد السوفييتي	د.ناديا خوست	مالك صقور	2017
117	المذابح في أرمينيا	حكمت براهيم هلال	مالك صقور	2017
118	نزاريّات...أيقونة الحب... والوطن	فلك حصرية	فلك حصرية	2017
119	من ديوان الجرح السوري	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2017
120	الله والفقر	مالك صقور	مالك صقور	2017
121	قسطنطين زريق مفكراً ومؤرخاً	عيسى فتوح	عيسى فتوح	2017
122	جرح الوطن	م. حديفي	م. حديفي	2017
123	فن القصة والمقامة	نذير جعفر	مالك صقور	2017
124	فلاسفة الحكم في العصر الحديث	فلك حصرية	مالك صقور	2017
125	أشعب ملك الطفيليين	فلك حصرية	مالك صقور	2017
126	فيلسوف الفريكة	د.خلف الجراد	مالك صقور	2017

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
127	الخيال الشعري عند العرب	فلك حصرية	مالك صقور	2018
128	قميص الصوف وقصص أخرى	مالك صقور	فلك حصرية	2018
129	أيقونات	فلك حصرية	فلك حصرية	2018